باسمه العلي

تحليل نثر عباسي

دانشجويان دوره كارشناسي ارشد

مدرّس: همّتي

مهر۱۳۹۹

المقامة

المقامة في اللغة كالمقام موضع القيام كمكانة ومكان استُعملت في المجلس، ثم في الجماعة الجالسين، ثم سميت الأحدوثة من الكلام مقامة كأنها تذكر في مجلس واحد تجتمع فيه الجماعة لسماعها.

تعريف المقامة:

المقامة لغة:

الأصل في المقامة أنها اسم مكان من أقام، ثم أطلقت على المجلس، فقيل: مقامات الناس، أي مجالسهم التي يتحدثون فيها ويتسامرون؛ فاستعلمت بمعنى مجلس القبيلة أو ناديها على نحو قول زهير:

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل

وتأتي بمعنى الجماعة التي يضمها المجلس أو النادي كما في قول لبيد بن أبي ربيعة:

ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن لدى باب الحصير قيام

وتطور معنى المقامة عبر العصور حتى أصبح يعني (الأحدوثة من الكلام)، يقول القلقشندي" وسميت الأحدوثة من الكلام مقامة، كأنها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها.

المقامة اصطلاحاً:

أما المقامات في اصطلاح الأدباء فهي فن كتابي سردي، عبارة عن أحاديث خيالية أدبية بليغة، حكايات قصيرة، تشتمل كل واحدة منها على حادثة لبطل المقامات، وهو الراوي الذي يرويها أو وقعت لمن يروي عنه راوٍ معين، تلقى في جماعة من الناس، فمفهومها يمكن بلورته في أنها قصة قصيرة "بطلها أنموذج إنساني مُكْدٍ متسول، لها راو وبطل وتقوم على حدث طريف مغزاه مفارقة أدبية أو مسألة دينية أو مغامرة مضحكة تحمل في داخلها لوناً من ألوان النقد أو التعويل على الواقع أو السخرية، وضعت في إطار من الصنعة اللفظية والبلاغية" وهدفها الرئيس تعليم الناشئة اللغة وأساليبها.

ويغلب على أسلوبها السجع والبديع، وتنتهي بمواعظ أو طرف وملح، أي إنها حكاية قصيرة، تقوم على الحوار بين بطل المقامات وراويها، والمقامات تعد من البذور الأولى للقصة عند العرب، وإن لم تتحقق

فيها كل الشروط الفنية للقصة، ثم أصبحت تطلق على الحديث الذي يدور في مجالس السمر من باب المجاز المرسل.

قال الشريشي: والمقامات المجالس، واحدها مقامة؛ والحديث يُجتمع له ويجلس لاستماعه يُسمّى مقامة ومجلساً، لأن المستمعين للمحدّث ما بين قائم وجالس، ولأنّ المحدث يقوم ببعضه تارةً ويجلس ببعضه أخرى.

قال الأعلم : (المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب يحضّ على فعل الخير).

أصل المقامات ومبتكرها:

زعم البعض أن أصل المقامات فارسي، وأنها انتقلت من اللغة الفارسي إلى العربية، ويرد على ذلك بأن المقامات قد ظهرت في اللغتين العبرية والسريانية بعد ترجمة مقامات الحريري، ولو كان أصل المقامات فارسياً لكان الأولى أن تنتقل المقامات إلى هاتين اللغتين من المقامات الفارسية وليس العربية، كما أن أول من ألف مقامات فارسية هو القاضي حميد الدين الذي ذكر أنه ترسم خطى البديع والحريري رغبة منه في إدخال هذا الفن إلى اللغة الفارسية، المقامة إذاً فن عربي أصيل، وهدفه الأساسي هو تعليم اللغة العربية وأساليبها،ومعرفة فنونها وأفنانها.

كما تضاربت الأقوال في أصل المقامات، فإن التضارب حول من اخترعها كان أشد وأعنف، فيرى فريق أن بديع الزمان عارض أحاديث ابن دريد فنشأت المقامات، ويستدلون على ذلك أولاً بقول الحصري في زهر الآداب أن بديع الزمان " لما رأى أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره، وانتخبها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر، في معارض عجمية، وألفاظ حوشية ... عارضه بأربعمائة مقامة في الكدية، تذوب ظرفاً، وتقطر حسناً" وثانياً بأن هناك نقاط اتفاق بين مقامات أحاديث ابن دريد ومقامات البديع، وتتمثل هذه العلاقة في الاسم، فإن من معاني المقامة –وهو الاسم الذي سمى به بديع الزمان فنه الأدبي- الحديث، ويجمع على أحاديث وهو الاسم الذي اختاره ابن دريد لأقاصيصه،كما أن الغاية من أحاديث ابن دريد ومقامات البديع واحدة وهي تعليم الناشئة اللغة.

بينما يؤكد فريق آخر على أن البديع هو مخترع هذا الفن، ويردون على زعم القول السابق بأن أحاديث ابن دريد نوادر ولطائف لم يستقل بها دون غيره، فللجاحظ في الحيوان والبخلاء مثلها، ولابن قتيبة في عيون

الأخبار، ولابن عبد ربه في العقد الفريد كذلك،كما أن ابن دريد يبدأ أحاديثه بذكر سند الحديث، ولا يفعل البديع كذلك، كما أن أبطال ابن دريد ورواته يختلفون من حديث لآخر، أما بديع الزمان فبطله واحد وهو أبو الفتح الإسكندري، وراويته أيضاً واحد وهو عيسى بن هشام، ولا أنسى الكدية التي جعلها البديع محوراً لأغلب مقاماته، بينما لم تنحى أحاديث ابن دريد هذا المنحى، كما أن أحاديث ابن دريد مالت إلى الطريقة التقريرة المباشرة، أما بديع الزمان فقد غلف أهدافه داخل الحبكة الفنية للمقامة، ثم إن القول السابق للحصري –والذي استشهد به أصحاب الرأي القائل بأن البديع عارض ابن دريد بمقاماته- يحمل بين طياته تناقضاً حول معارضة البديع لابن دريد، فأحاديث ابن دريد تبلغ أربعين حديثاً، ومقامات بديع الزمان – وفقاً لقول الحصري السابق وبغض النظر عن الاختلاف في عدد المقامات- قد وصلت إلى أربعمائة مقامة، فيكف يعارض البديع أربعين حديثاً بأربعمائة مقامة؟

ومهما يكن من أمر اختلاف الآراء حول تأثر بديع الزمان بأحاديث ابن دريد، فإن البديع قد أظهر هذا الفن في صورة فنية رائعة، وقد اعتبر رائد هذا المجال وزعيمه المُجيد، بل لقد التصق اسم المقامات ببديع الزمان في أذهان الناس، وحسبه ذلك، ولو كان البديع قد أخذ من ابن دريد حقاً، فإن ذلك لا يعيبه، بل يزيد من إبداعه الفذ النادر المثيل، إذ ليس من السهل أن يتفوق التلميذ على أستاذه، وقد احتذى العديد من الناس حذو هذا الأستاذ الفذ، لعل الحريري من أبرزهم، بالإضافة إلى الغزالي وابن ناقيا والصفدي وغيرهم، غير أن هؤلاء كلهم لم يصلوا شأو البديع في هذا الفن البديع.

نشأة فن المقامات:

على الرغم من الخلاف في مبتكرها إلا أن الرأي الراجح أن أول من أنشأ المقامات في الأدب العربي هو العالم اللغوي أبو بكر بن دريد (المتوفى عام ٣٢١ هـ)، فقد كتب أربعين مقامة كانت هي الأصل لفن المقامات، ولكن مقاماته غير معروفة لنا، ثم جاء بعده العالم اللغوي أحمد بن فارس (المتوفى عام ٣٩٥ هـ)، فكتب عدداً من المقامات أيضاً، ثم جاء بعده بديع الزمان الهمذاني، وكتب مقاماته المشهورة، وقد تأثر فيها بابن فارس حيث درس عليه، ويعتبر البديع هو الرائد الحقيقي للمقامات في الأدب العربي، ثم جاء بعده كتاب كثيرون، أشهرهم أبو محمد القاسم بن على الحريرى صاحب المقامات المشهورة بمقامات الحريري، ثم كثر كتاب المقامات كالزمخشري العالم اللغوي المفسر، وقد سمى مقاماته (أطواق الذهب)، وابن الاشتركوني السرقسطي الأندلسي (توفي عام ٥٣٨ هـ)، صاحب المقامات السرقسطية، وبطلها المنذر بن

حمام، وراويها السائب بن تمام، ومقامات الإمام السيوطي، وفي العصر الحديث أنشأ محمد المويلحي حديث عيسى بن هشام، وناصيف اليازجى "مجمع البحرين".

خصائص المقامات :

١- أسلوب المقامات مملوء بالصناعة اللفظية من جناس وطباق والتزام تام بالسجع الذي يُسَهِّل حِفْظَها ويجعلك تعجب وتطرب لما فيها من إيقاع لفظي ظاهر من خلاله.

٢- تغلب على ألفاظها الغرابة لما للمقامات من غاية وفائدة تعليمية واضحة تجاه اللغة، فعندما يحفظها الطلاب وشداة الأدب فإنها تزودهم بذخيرة لغوية مفيدة، وتمدهم من اللغة بغريبها ومن الزخرف اللفظي بسجعه، كما تشتمل على وفنون البلاغة المختلفة من تشبيهات وكنايات واستعارات، وبخاصة الفنون البديعية كالطباق والجناس وغيرها، بصورة تطبيقية سهلة ومحببة.

٣- مليئة بالقصص والحكم والمواعظ.

٤- يختار كاتب المقامات لمقاماته بطلاً تدور حوادث المقامات حوله، ورَاوية يروي تلك الأحداث ، فبطل مقامات بديع الزمان الهمداني أبو الفتح الإسكندري، وراويها عيسى بن هشام، وبطل مقامات الحريري أبو زيد السروجي، وراويها الحارث بن همام ؛ بالإضافة إلى شخصيات أخرى داخل المقامة تؤدي أدواراً فيها ؛ وهكذا.

٥- يدور أغلبها على الاحتيال والطواف بالبلدان لجلب الرزق، فهي تتضمن عادة قصة طريفة حول أحد المكدين، وهم فئة المحتالين الأذكياء البلغاء الذين يبتزون أموال البسطاء من الناس بالحيلة والفطنة والذكاء.

اسم المقامة وطولها:

غالباً ما تؤخذ أسماء المقامات من اسم البلد الذي انعقد فيه مجلسها، فمن أسماء مقامات الحريري مثلاً: المقامة الصنعانية، المقامة الحلوانية، المقامة الكوفية، المقامة المراغية، المقامة الدمشقية، المقامة البغدادية، المقامة السنجارية، وتختلف المقامات فيما بينها في الطول، فقد تكون طويلة، وقد تكون قصيرة.

تأثير المقامة العربية في أدب العالم:

يشير بعض النقاد الى أن المقامة العربية قد أثرت في الأدب الغربي تأثيراً واسعاً، فقد أثار بعض الباحثين مسألة تأثيرها في (الكوميديا الإلهية) لدانتي، وكان لأثرها بروزٌ كبيرٌ وواضحٌ في قصص الشطّار الأسبانية التي تتحدث عن أحوال المجتمع وظروف الأغمار من الناس وقصص الطماعين والشحاذين، مما أوحى به مضمون المقامة، واعترف به المهتمون بالأدب الأندلسي استناداً الى المقارنات التي عقدوها بين المقامة والأدب السردي في أوربا.

بناء المقامة :

للمقامة بناء تسير عليه، مكون من دعائم لتصل إلى وحدة فنية محكمة، من هذه الدعائم:

١ - الحادثة : لابد من بناء الحادثة على حكاية ثم عرضها بطريقة التسلسل، والتتابع، ولابد أيضا من اشتمالها على عنصر التشويق لينطلق الكاتب بعد ذلك إلى السرد.

٢ - عنصر التشويق : ينبع هذا العنصر من نفسية أبطالها حتى يستثير انتباه القارئ.

٣ - السرد : لا بد أن يكون السرد في المقامة مغرياً، حتى يحمل القارئ على المتابعة وذلك بعرض المشاهد، وربطها ببراعة مع بعضها البعض.

٤ - العقدة : التي تمثل ذروة الموضوع المسرود وقمته الدرامية وهي مشكلة المقامة التي ينشد لها الراوي والمروي عنه حلاً.

٥ - التدرج في الحل ثم اعتمادها على التحليل الدقيق ليصل بعدها الكاتب إلى النهاية.

المقامة في العصر الحديث:

لم يخلُ قرن واحد من القرون من فن المقامة ومع ذلك فقد وجدنا في هذا العصر إلى جانب الأنماط المقامية التي تواكب أسلوب المقامة الكلاسيكية أنماطا أخرى مختلفة تماما سواء من حيث الشكل أو المضمون.

فهذا العصر هو عصر التخصص في الأنواع ولم يكن من الممكن أن يقبل الذوق العام المعاصر فنا كفن المقامة فهذا العصر (عصر القصة ، والمقالة ، الكاريكاتور) وهي فنون جميعها تغني عن فن المقامة؛ فكان طبعياً أن يأخذ كل فن مجاله الذي رسم له ولعل هذا التجديد جاء نتيجة الديباجة المقامية التي احتوت في

داخلها ألواناً شتى من الفنون لم يشأ لها أن تظهر في الصور القديمة على نحو مستقل ، فكان من الطبعي أن تتجه المقامات الحديثة اتجاهات متشعبة كخطوة أولى نحو اتصال الفنون التي اشتملت عليها المقامة القديمة وظهورها بوصفها فنوناً مستقلة، ولم يعد للمقامة في العصر الحديث فعاليتها القديمة فقد آل أمرها إلى التفكك، والتحلل من عناصرها المختلفة التي ظلت تتكون منها وهي القصة، والمقالة.

- الف: من مقامات بديع الزمان الهمدانى

١- الَمقَامَةُ المَضِيرِيَّة من مقامات بديع الزمان الهمداني (٣٥٨-٣٩٨ هـ ،ق)

حَدَّثَنا عِيسَى بْنُ هِشامٍ قَالَ: كُنْتُ بِالبَصْرَةِ، وَمَعِي أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ رَجُلُ الفَصَاحَةِ يَدْعُوهَا فَتُجِيبُهُ، وَالبَلاغَةِ يَأْمُرُهَا فَتُطِيعُهُ، وَحَضَرْنَا مَعْهُ دَعْوَةَ بَعْضِ التُّجَّارِ، فَقُدِمَتْ إِلَيْنَا مَضِيرَةٌ، تُثْنِي على الحَضَارَةِ، وَتَتَرَجْرَجُ في الغَضَارَةِ، وَتُؤْذِنُ بِالسَّلاَمَةِ، وَتَشْهَدُ لِمَعَاوِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ بِالإِمَامَة، ِ فِي قَصْعَةٍ يَزِلُّ عَنْهَا الطَّرْفُ، وَيَمُوجُ فِيهَا الظَّرْفُ، فَلَمَّا أَخَذَتْ مِنَ الخِوانِ مَكانَهَا، وَمِنَ القُلُوبِ أَوْطَانَهَا، قَامَ أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ يَلْعَنُهَا وَصَاحِبَهَا، وَيَمْقُتُهَا وَآكِلَهَا، وَيَثْلِبُهَا وَطَابِخَهَا، وَظَنَنَّاهُ يَمْزَحُ فَإِذَا الأَمْرُ بِالضِّدِّ، وَإِذَا المِزَاحُ عَيْنُ الجِدِّ، وَتَنَحَى عَنِ ٱلْخِوَانِ، وِتِرِكِ مُسَاعَدَةَ الإِخْوَانِ، وَرَفَعْنَاهَا فَارْتَفَعَتْ مَعَهَا القُلُوبُ، وَسَافَرَتْ خَلْفَهَا العُيُونُ، وَتَحَلَّبَتْ لَهَا الأَفْوَاهُ، وَتَلَمَّظَتْ لَهَا الشِّفَاهُ، وَاتَّقَدَتْ لَهَا الأَكْبَادُ، وَمَضَى فِي إِثْرِهَا الفُؤَادُ،وَلكِنَّا سَاعَدْنَاهُ على هَجْرِهَا، وَسَأَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِهَا، فَقَالَ: قِصَّتِي مَعَهَا أَطْوَلُ مِنْ مُصِيبَتِي فِيهَا، وَلَوْ حَدَّثْتُكُمْ بِهَا لَمْ آمَنِ المَقْتَ، وَإِضَاعَةَ الوَقْتِ، قُلْنَا: هَاتِ: قَالَ: دَعَانِي بَعْضُ التُّجَّارِ إِلَى مَضِيرَةٍ وَأَنَا بِبَغْدَادَ، وَلَزِمَنِي مُلاَزَمَةَ الغَرِيمِ، وَالكَلْبِ لأَصْحَابِ الرَّقِيمِ، إِلَى أَنْ أَجَبْتُهُ إِلَيْهَا، وَقُمْنَا فَجَعَلَ طُولَ الطَّرِيقِ يُثْنِي عَلَى زَوْجَتِهِ، وَيُفَدِّيهَا بِمُهْجَتِهَ، وَيَصِفُ حِذْقَهَا فِي صَنْعَتِهَا، وَتَأَنُّقَهَا فِي طَبْخِهَا وَيَقُولُ: يَا مَولاْيَ لَوْ رَأَيْتَهَا، وَالخَرْقَةُ فِي وَسَطِهَا، وَهْيَ تَدُورُ فِي الدُّورِ، مِنَ التَّنُّورِ إِلَى القُدُورِ وَمِنَ القُدُورِ إِلَى التَّنُّورِ تَنْفُثُ بِفِيهَا النَّارَ، وَتَدُقُّ بِيَدَيْهَا الأَبْزَارَ، وَلَوْ رَأَيْتَ الدُّخَانَ وَقَدْ غَبَّرَ فِي ذَلِكَ الوَجْهِ الجَمِيلِ، وَأَثَّرَ فِي ذَلِكَ الخَدِّ الصَّقِيلِ، لَرَأَيْتَ مَنْظَراً تَحارُ فِيهِ العيُونُ: وَأَنَا أَعْشَقُهَا لأَنَّهَا تَعْشَقُنِي، وَمِنْ سَعَادَةِ المَرْءِ أَنْ يُرْزَقَ المُسَاعَدَةَ مِنْ حَلِيلَتِهِ، وَأَنْ يَسْعَدَ بِظَعِينَتِهِ، وَلاَ سِيَمَّا إِذَا كانَتْ مِنْ طِينَتِهِ، وَهْيَ ابْنَةُ عَمِّي لَّحَا، طِينَتُها طِينَتِي، وَمَدِينَتُهَا مَدِينَتِي، وَعُمُومَتُهَا عُمُومَتِي، وَأَرُومَتَها أَرُومَتِي، لَكِنَّها أَوْسَعُ مِنِّي خُلْقاً، وَأَحْسَنُ خَلْقاً وَصَدَّعَنِي بِصِفَاتِ زَوْجَتِهِ، حَتَّى انْتَهَينَا إِلَى مَحَلَّتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَوْلاي تَرَى هَذِهِ المَحَلَّةَ؟ هِيَ أَشْرَفُ مَحَالِّ بَغْدَادَ، يَتَنَافَسُ الأَخْيَارُ فِي نُزُولِها، وَيَتَغايَرُ الكِبَارُ فِي حُلُولِهَا، ثُمَّ لاَ يَسْكُنُهَا غَيْرُ التُّجَّارِ، وَإِنَّمَا المَرْءُ بِالْجَارِ وَدَارِى فِي السِّطَةِ مِنْ قِلادَتِهَا، وَالنُّقْطَةِ من دَائِرَتِهَا، كَمْ تُقَدِّرُ يَا مَوْلايَ أُنْفِقَ عَلى كُلِّ

دَارٍ مِنْهَا؟ قُلْهُ تَخْمِيناً إِنْ لَمْ تَعْرِفْهُ يَقِيناً، قُلْتُ: الكَثِيرُ، فَقَالَ: يَا سُبْحَانَ اللهِ! مَا أَكْبَرَ هَذا الغَلَطَ! تَقُولُ الكَثِيرَ فَقَطْ؟ وَتَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ، وَقَالَ: سُبْحَانَ مَنْ يَعْلَمُ الأَشْيَاءَ، وَانْتَهَيْنَا إِلَى بَابِ دَارِهِ، فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي، كَمْ تُقَدِّرُ يَا مَوْلايَ أَنْفَقْتُ على هذِهِ الطَّاقَةِ؟ أَنْفَقْتُ واللهِ عَلَيْهَا فَوْقَ الطَّاقَةِ، وَوَرَاءَ الفَاقَةِ، كَيْفَ ترى صَنْعَتَهَا وَشَكْلَهَا؟ أَرَأَيْتَ باللهِ مِثْلَهَا؟ انْظُرْ إِلَى دَقَائِقِ الصَّنْعَةِ فِيهَا، وَتَأَمَّلْ حُسْنَ تَعْرِيجَهَا، فَكَأَنَّمَا خُطَّ بِالبِرْكارِ وَانْظُرْ إِلى حِذْقِ النَّجَّارِ فِي صَنْعَةِ هذَا البَابِ، اتَخَذَهُ مِنْ كَمْ؟ قُلْ: وَمِنْ أَيْنَ أَعْلَمُ، هُوَ سَاجٌ مِنْ قِطْعَةٍ وَاحِدَةٍ لاَ مَأْرُوضٌ وَلا عَفِنٌ، إِذَا حُرِكَ أَنَّ، وَإِذَا نُقِرَ طَنَّ، مَنِ اتَّخَذَهُ يا سَيِّدِي؟ اتَّخَذَهُ أَبُو إِسْحَاقَ بْنُ مَحَمَّدٍ البَصْرِيُّ، وَهُوَ واللهِ رَجُلٌ نَظِيفُ الأَثْوَابِ، بَصِيرٌ بِصَنْعِة الأَبْوَابِ خَفِيفُ اليَدِ فِي العَمَلِ، للهِ دَرُّ ذَلِكَ الرَّجُلِ! بِحَيَاتِي لا اسْتَعَنْتَ إِلا بِهِ عَلى مِثْلِهِ، وَهَذِهِ الحَلَقَةُ تَرَاهَا اشْتَرَيْتُهَا فِي سُوقِ الطَّرَائِفِ مِنْ عِمْرَانَ الطَّرَائِفِيِّ بِثَلاثَةِ دَنَانِيرَ مُعِزِّيَّة، وَكَمْ فِيهَا يَا سَيِّدِي مِنَ الشَّبَهِ؟ فِيهَا سِتَّةُ أَرْطَالٍ، وَهْيَ تَدُورُ بِلَوْلَبٍ فِي البَابِ، بِاللهِ دَوِّرْهَا، ثُمَّ انْقُرْهَا وَأَبْصُرْهَا، وَبِحَيَاتِي عَلَيْكَ لا اشْتَرَيْتَ الحَلَقَ إِلاَّ مِنْهُ؛ فَلَيْسَ يَبِيعُ إِلاَّ الأَعْلاَقَ، ثُمَّ قَرَعَ البَابَ وَدَخَلْنَا الدِّهْلِيزَ، وَقَالَ: عَمَّرَكِ اللهُ يَا دَارُ وَلاَ خَرَّبَكَ يَا جِدَارُ، فَمَا أَمْتَنَ حِيطَانَكِ، وَأَوْثَقَ بُنْيَانَكِ، وَأَقْوى أَسَاسَكِ، تَأَمَّلْ بِاللهِ مَعَارِجَهَا، وَتَبَيَّنْ دَواخِلَهَا وَخَوارِجَهَا، وَسَلْنِي: كَيْفَ حَصَّلْتَهَا؟ وَكَمْ مِنْ حِيلَةٍ احْتَلْتَهَا، حَتَّى عَقَدْتَهَا؟ كانَ لِي جَارٌ يُكْنى أَبَا سُلَيْمَانَ يَسْكُنُ هَذِهِ المَحَلَّةَ، وَلَهُ مِنَ المَالِ مَا لا يَسَعُهُ الخَزْنُ، وَمِنَ الصَّامِتِ مَا لاَ يَحْصُرُهُ الوَزْنُ، مَاتَ رَحِمَهُ اللهُ وَخَلَّفَ خَلْفاً أَتْلَفَهُ بَيْنَ الخَمْرِ وَالزَّمْرِ، وَمَزَّقَهُ بَيْنَ النَّرْدِ وَالقَمْرِ، وَأَشْفَقْتُ أَنْ يَسُوقُه قَائِدُ الاضْطِرَارِ، إِلَى بَيْعِ الدَّارِ، فَيَبِيعَهَا فِي أَثْنَاءِ الضَّجَرِ، أَوْ يَجْعَلَهَا عُرْضَةً لِلْخَطَرِ، ثُمَّ أَرَاها، وَقَدْ فَاتَنِي شِرَاهَا، فَأَتَقَطَّعُ عَلَيْهَا حَسَرَاتٍ، إِلَى يَوْمِ المَماتِ، فَعَمِدْتُ إِلَى أَثْوَابٍ لاَ تَنِضُّ تِجَارَتُهَا فَحَمَلْتُهَا إِلَيْهِ، وَعَرَضْتُهَا عَلَيْهِ، وَسَاوَمْتُهُ عَلَى أَنْ يَشْتَرِيهَا نَسِيَّةً، وَالمُدْبِرُ يَحْسَبُ النَّسِيَّةَ عَطِيَّةً، والمُتَخَلِّفُ يَعْتَدُّهَا هَدِيَّةً، وَسَأَلْتُهُ وَثِيقَةً بِأَصْلِ المَالِ، فَفَعَلَ وَعَقَدَهَا لِي، ثُمَّ تَغَافَلْتُ عَنِ اقْتِضَائِهِ، حَتَّى كَادَتْ حَاشِيَةُ حَالِهِ تَرِقُّ، فَأَتَيْتُهُ فَاقْتَضَيْتُهُ، واسْتَمْهَلَنِي فَأَنْظَرْتُهُ، وَالْتَمَسَ غَيْرَهَا مِنَ الثِيَّابِ فَأَحْضَرْتُهُ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ يَجْعَلَ دَارَهُ رَهِينَةً لَدَيَّ، وَوَثِيقَةً فِي يَدَيَّ، فَفَعَلَ، ثُمَّ دَرَّجْتُهُ بِالمُعَامَلاتِ إِلَى بَيْعِهَا حَتَّى حَصَلَتْ لِي بِجَدٍّ صَاعِدٍ، وَبَخْتٍ مُسَاعِدٍ، وَقُوَّة سَاعِدٍ، وَرُبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ، وَأَنَا بِحَمْدِ اللهِ مَجْدُودٌ، وَفِي مِثْلِ هَذهِ الأَحْوَالِ مَحْمُودٌ، وَحَسْبُكَ يَا مَوْلاَي أَنِّي كُنْتُ مُنْذُ لَيَالٍ نَائِماً فِي البَيْتِ مَعَ مَنْ فِيهِ إِذْ قُرِعَ عَلَيْنَا البَابُ فَقُلْتُ: مَنِ الطَّارِقُ المُنْتَابُ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مَعَهَا عِقْدُ لآلٍ، فِي جِلْدَةِ مَاءٍ وَرِقَّةِ آلٍ، تَعْرِضُهُ لِلْبَيْعِ، فَأَخَذْتُهُ مِنْهَا إِخْذَةَ خَلْسٍ، وَاشْتَرَيْتُهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ، وَسَيَكُونُ لَهُ نَفْعٌ ظَاهِرٌ، وَرِبْحٌ وَافِرٌ، بِعَوْنِ اللهِ تَعَالَى وَدَوْلَتِكَ، وَإِنَّمَا حَدَّثْتُكَ بِهَذَا الحَدِيثِ لِتَعْلَمَ سَعَادَةَ جَدِّيَ فِي التِّجَارَةِ، وَالسَّعَادَةُ تُنْبِطُ المَاءَ مِنَ الحِجَارَةِ، اللهُ أَكْبَرُ لاَ يُنْبِئُكَ أَصْدَقُ مِنْ نَفْسِكَ، وَلاَ أَقْرَبُ مِنْ أَمْسِكَ، اشْتَرَيْتُ هَذا الحَصِيرَ فِي

المُنَادَاتِ، وَقَدْ أُخْرِجَ مِنْ دُورِ آلِ الفُرَاتِ، وَقْتَ المُصَادَرَاتِ، وَزَمَنَ الغَارَاتِ وَكُنْتُ أَطْلُبُ مِثْلَهُ مُنْذُ الزَّمَنِ الأَطْوَلِ فَلا أَجِدُ، وَالدَّهْرُ حُبْلَى لَيْسَ يُدْرَى مَا يَلِدُ، ثُمَّ اتَّفَقَ أَنِّي حَضَرْتُ بَابَ الطَّاقِ، وَهَذا يُعْرَضُ بِالأَسْوَاقِ، فَوَزَنْتُ فِيهِ كَذَا وَكَذَا دِينَاراً، تَأَمَّلْ بِاللهِ دِقَّتَهُ وَلِينَهُ، وَصَنْعَتَهُ وَلَوْنَهُ، فَهُوَ عَظِيمُ القَدْرِ، لا يَقَعُ مِثْلُهُ إِلاَّ فِي النَّدْرِ، وَإِنْ كُنْتَ سَمِعْتَ بِأَبِي عِمْرَانَ الحَصِيرِيِّ فَهُوَ عَمَلُهُ، وَلَهُ ابْنٌ يَخْلُفُهُ الآنَ فِي حَانُوتِهِ لاَ يُوْجَدُ اعْلاَقُ الحُصُرِ إِلاَّ عِنْدَهُ؛ فَبِحَيَاتِي لاَ اشْتَرَيْتَ الحُصُرَ إِلا مِنْ دُكَّانِهِ، فَالمُؤْمِنُ نَاصِحٌ لإِخْوانِهِ، لاَ سِيَّما مَنْ تَحَرَّمَ بِخُوَانِهِ، وَنَعُودُ إِلَى حَدِيثِ المَضِيرَةِ، فَقَدْ حَانَ وَقْتُ الظَّهِيرَةِ، يَا غُلاَمُ الطَّسْتَ وَالمَاءَ فَقُلْتُ: اللهُ أَكْبَرُ، رُبَّمَا قَرُبَ الفَرَجُ، وَسَهُلَ المَخْرَجُ، وَتقَدَّمَ الغُلاَمُ، فَقَالَ: تَرى هذَا الغُلاَمَ؟ إِنَّهُ رُومِيُّ الأَصْلِ، عِرَاقِيُّ النَّشْءِ، تَقَدَّمْ يَا غُلاَمُ وَاحْسِرْ عَنْ رَأْسِكَ، وَشَمِّرْ عَنْ سَاقِكَ، وانْضُ عَنْ ذِرَاعِكَ، وَافْتَرَّ عَنْ أَسْنَانِكَ، وَأَقْبِلْ وَأَدْبِرْ، فَفَعَلَ الغُلاَمُ ذَلِكَ، وَقَالَ: التَّاجِرُ: باللهِ منَ اِشْتَرَاهُ؟ اشْتَرَاهُ وَاللهِ أَبُو العَبَّاسِ، مِنَ النَّخَّاسِ، ضَعِ الطَّسْتَ، وَهَاتِ الإِبْرِيقَ، فَوَضَعَهُ الغُلاَمُ، وَأَخَذَهُ التَّاجِرُ وَقَلَّبَهُ وَأَدَارَ فِيهِ النَّظَرَ ثُمَّ نَقَرَهُ، فَقَالَ: انْظُرْ إِلى هَذَا الشَّبَهِ كَأَنَّهُ جِذْوَةُ اللَّهَبِ، أَوْ قِطْعَةٌ مِنَ الذَّهَبِ، شَبَهُ الشَّامِ، وَصَنْعَةُ العِرَاقِ، لَيْسَ مِنْ خُلْقَانِ الأَعْلاَقِ قَدْ عَرَفَ دُورَ المُلُوكِ ودَارَهَا، تَأَمَّلْ حُسْنَهُ وَسَلْنِي مَتَى اشْتَرَيْتُهُ؟ اشْتَرَيْتُهُ واللهِ عَامَ المَجَاعَةِ، وَادَّخَرْتُهُ لِهَذِهِ السَّاعَةِ، يَا غُلاَمُ الإِبْرِيقُ، فَقَدَّمَهُ وَأَخَذُه التَّاجِرُ فَقَلَّبَهُ ثُمَّ قَالَ وَأُنْبُوبُهُ مِنْهُ لاَ يَصْلُحُ هَذا الإِبْرِيقُ إِلاَّ لِهَذا الطَّسْت، وَلاَ يَصْلحُ هَذا الطَّسْت إِلاَّ مَعَ هَذَا الدَّسْتِ، وَلاَ يَحْسُنُ هَذا الدَّسْتُ إِلاَّ فِي هَذا البَيْتِ، وَلاَ يَجْمُلُ هذَا البَيْتُ إِلاَ مَعَ هَذا الضَّيْفِ، أَرْسِلِ المَاءَ يَا غُلاَمُ، فَقَدْ حَانَ وَقْتُ الطَّعَامِ، باللهِ تَرى هَذَا المَاءَ مَا أَصْفَاهُ، أَزْرَقُ كَعَيْنِ السِّنَّوْرِ، وَصَافٍ كَقَضِيبِ البِلَّوْرِ، اسْتُقِيَ مِنَ الفُرَاتِ، وَاسْتُعْمِلَ بَعْدَ البَيَاتِ، فَجَاءَ كَلِسَانِ الشَّمْعَةِ، فِي صَفَاءِ الدَّمْعَةِ، وَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي السَّقَّاءِ، الشَّأْنُ فِي الإِنَاءِ، لاَ يَدُلُّكَ عَلَى نَظَافَةِ أَسْبَابِهِ، أَصْدَقُ مِنْ نَظَافَةِ شَرَابِهِ، وَهذَا المِنْدِيلُ سَلْنِي عَنْ قِصَّتِهِ، فَهُوَ نَسْجُ جُرْجَانَ، وَعَملُ أَرَّجَانَ، وَقَعَ إِلَيَّ فَاشْتَرَيْتُهُ، فَاتَّخَذَتَ امْرَأَتِي بَعْضَهُ سَرَاوِيلاً، وَاتَّخَذْتُ بَعْضَهُ مِنْدِيلاً، دَخَلَ فِي سَرَاوِيلهَا عِشْرُونَ ذِرَاعاً، وانْتَزَعْتُ مِنْ يَدِهَا هَذَا القَدَرَ انْتِزاعاً، وأَسْلَمْتُهُ إِلى المُطَرِّزِ حَتَّى صَنَعَهُ كَمَا تَرَاهُ وَطَرَّزَهُ، ثُمَّ رَدَدْتُهُ مِنَ السُّوقِ، وَخَزَنْتُهُ فِي الصُّنْدُوقِ، وَأَدَّخَرْتُهُ لِلْظِّرَافِ، مِنَ الأَضْيَافِ لَمْ تُذِلَّهُ عَرَبُ العَامّةِ بِأَيْدِيهَا، وَلاَ النِّسَاءُ لِمَآقِيهَا، فَلِكُلِّ عِلْقٍ يَوْمٌ، وَلِكُلِّ آلَةٍ قَوْمٌ، يَاغُلاَمُ الْخُوَانَ، فَقَدْ طَالَ الزَّمَانُ، وَالقِصَاعَ، فَقَدْ طَالَ المِصَاعُ، والطَّعَامَ، فَقَدْ كَثُرَ الكَلامَ، فَأَتَى الغُلاَمُ بَالخُوَانِ، وَقَلَّبَهُ التَّاجِرُ عَلَى المَكَانِ، وَنَقَرَهُ بِالبَنَانِ، وَعَجَمَهُ بِالأَسْنَانِ، وَقَالَ: عَمَّرَ اللهُ بَغْدَادَ فَما أَجْوَدَ مَتَاعَهَا، وَأَظْرَفَ صُنَّاعَهَا، تَأَمَّلْ بِاللهِ هَذَا الخِوَانُ، وَانْظُرْ إِلَى عَرْضِ مَتْنِهِ، وَخِفَّةِ وَزْنِهِ، وَصَلاَبَةَ عُودِهِ، وَحُسْنِ شَكْلِهِ، فَقُلْتُ: هَذا الشَّكْلُ، فَمَتى الأَكْلُ؟ فقَالَ: الآنَ، عَجِّلْ يَاغُلاَمُ الطَّعَامَ، لكِنَّ الخِوَانَ قَوَائِمُهُ مِنْهُ، قَالَ أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ

فَجَاشَتْ نَفْسِي وَقُلْتُ قَدْ بَقِيَ الخَبْزُ وآلاتُهُ وَالخُبْزُ وَصِفاتُهُ وَالحِنْطَةُ مِنْ أَيْنَ اشْتُرِيَتْ أَصْلاً، وَكَيْفَ اكْتَرى لَهَا حَمْلاً، وَفِي أَيِّ رَحىً طَحَنَ، وَإِجَّانَةٍ عَجَنَ، وَأَيَّ تَنُّورٍ سَجَرَ، وَخَبَّازٍ اسْتَأْجَرَ، وَبَقِيَ الحَطَبُ مِنْ أَيْنَ احْتُطِبَ، وَمَتَى جُلِبَ؟ وَكَيْفَ صُفِّفَ حَتَّى جُفِّفَ؟ وَحُبِسَ، حَتَّى يَبِسَ، وَبَقِيَ الخَبَّازُ وَوَصْفُهُ، وَالتِّلْمِيذُ وَنَعْتُهُ، وَالدَّقِيقُ وَمَدْحُهُ، وَالْخَمِيرُ وَشَرْحُهُ، وَالمِلْحُ وملاَحَتُهُ وَبَقِيَتِ السُّكُرَّجاتُ مَنِ اتَّخَذَها، وَكَيْفَ انْتَقَذَهَا، وَمَنِ اسْتَعْمَلَهاَ،؟ وَمَنْ عَمِلَها؟ والخَلُّ كَيفَ انْتُقِي عِنَبُهُ، أَوْ اشْتُرِيَ رُطَبُهُ، وَكَيفَ صُهْرِجَتْ مِعْصَرَتُهُ؟ وَاسْتُخْلِصَ لُبُّهُ؟ وَكَيْفَ قُيِّرَ حَبُّهُ؟ وَكَمْ يُساوِي دَنُّهُ؟ وَبَقِيَ البَقْلُ كيفَ احْتِيلَ لَهُ حَتَّى قُطِفَ؟ وَفِي أَيِّ مَبْقَلَةٍ رُصِفَ؟ وَكَيْفَ تُؤُنِّقَ حَتَّى نُظِّفَ؟ وَبَقيتِ المَضِيرَةُ كَيْفَ اشْتُرِيَ لَحْمُها؟ وَوُفِّيَ شَحْمُهَا؟ ونُصِبَتْ قِدْرُها، وَأَجِّجَتْ نَارُها، وَدُقَّتْ أَبزَارُها، حَتَّى أُجِيدَ طَبْخُها وَعُقِدَ مَرَقُها؟ وَهذَا خَطْبٌ يَطُمُّ، وأَمْرٌ لا يَتِمُّ، فَقُمْتُ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ فَقُلْتُ: حَاجَةً أَقْضِيها، فَقَالَ: يَامَوْلايَ تُرِيدُ كَنِيفاً يُزْري برَبِيعِيَّ الأَمِيرِ، وَخَرِيفِيَّ الوَزِيرِ، قَدْ جُصِّصَ أَعْلاَهُ، وَصُهْرِجَ أَسْفَلُهُ، وَسُطِّحَ سَقْفُهُ، وَفُرِشَتْ بِالمَرْمَرِ أَرْضُهُ، يَزِلُّ عَنْ حائِطِهِ الذَّرُّ فَلاَ يَعْلَقُ، وَيَمْشِي عَلَى أَرْضه الذُّبَابُ فَيَنْزَلِقُ، عَلَيْهِ بَابٌ غِيرَانُهُ مِنْ خَلِيطيْ ساجٍ وَعَاجٍ، مُزْدَوجَينِ أَحْسَنَ ازْدِواجٍ، يِتِمِنَّى الضَّيْفُ أَنْ يَأْكُلَ فِيهِ، فَقُلْتُ: كُلْ أَنْتَ مِنْ هَذا الجِرابِ، لَمْ يَكُنِ الكَنِيفُ فِي الحِسابِ، وَخَرَجْتُ نَحْوَ البَابِ، وَأَسْرَعْتُ فِي الذَّهَابِ، وَجَعَلْتُ أَعْدُو وَهُوَ يَتْبَعُني وَيَصِيحُ: يَا أَبَا الفَتْحِ المَضِيرَةَ، وَظَنَّ الصِّبْيَانُ أَنَّ المَضِيرَةَ لَقَبٌ لِي فَصاحُوا صِياحَهُ، فَرَمَيْتُ أَحَدَهُمْ بِحَجَرٍ، مِنْ فَرْطِ الضَّجَرِ، فَلقِي رَجُلٌ الحَجَرَ بِعِمامَتِهِ، فَغَاصَ فِي هامَتِهِ، فَأُخِذْتُ مِنَ النَّعَالِ بِما قَدُمَ وَحَدُثُ، وَمِنَ الصَّفْعِ بِمَا طَابَ وَخَبُثَ، وَحُشِرْتُ إِلَى الحَبْسِ، فَأَقَمْتُ عامَينِ فِي ذلكَ النَّحْسِ، فَنَذرْتُ أَنْ لا آكلَ مَضِيرَةً ما عِشْتُ، فَهَلْ أَنَا فِي ذَا يَالَهَمْدَانَ ظَالِمُ؟، قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَقَبِلْنَا عُذْرَهُ، وَنَذَرْنَا نَذْرَهُ، وَقُلْنا: قَدِيماً جَنَتِ المَضِيرةُ عَلَى الأَحْرَارِ، وَقَدَّمَتِ الأَرَاذِلِ عَلى الأَخْيارِ.

٢- المقامة الحلوانية، من مقامات بديع الزمان الهمداني (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ ،ق)

حَدَّثَنا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: لَمَّا قَفَلْتُ مِنَ الحَجِّ فِيمَنْ قَفَلَ، وَنَزَلْتُ مَعَ مَنْ نَزلَ، قُلْتُ لِغُلامي: أَجِدُ شَعْرِي طَوِيلاً، وَقَدْ اتَّسَخَ بَدَنِي قَليلاً، فَاخْتَرْ لَنَا حَمَّامَاً نَدْخُلهُ، وَحَجَّامَاً نَسْتَعْمِلهُ، وَلِيَكُنْ الحَمَّامُ وَاسِعَ الرُّقْعَةِ، نَظِيفَ البُقْعَةِ، طَيِّبَ الهَوَاءِ، مُعْتَدِلَ المَاءِ، وَلْيكُنْ الحَجَّامُ خَفِيفَ اليَدِ، حَدِيدَ المُوسَى، نَظيفَ الثِّيابِ، قَليلَ الفُضُولِ، فَخَرَجَ مَلِيّاً وَعَادَ بَطِيّاً، وَقالَ: قَدْ اخْتَرْتُهُ كَمَا رَسَمْتَ، فَأَخَذْنَا إِلَى الحَمَّامَ السَّمْتَ، وَأَتَيْناهُ فَلَمْ نَرَ قَوّامَهُ، لَكِنِّي دَخَلْتُهُ وَدَخَلَ عَلى أَثَرِي رَجُلٌ وَعَمَدَ إِلى قِطْعَةِ طِينٍ فَلطَّخَ بِها جَبِيني، وَوَضَعَها على رأَسِي، ثُمَّ خَرَجَ وَدَخَل آخَرُ فَجَعَلَ يَدْلِكُني دَلْكاً يَكُدُّ العِظامَ، وَيَغْمِزُنِي غَمْزاً يَهُدُّ الأَوْصالَ وَيُصَفِّرُ صَفِيراً يَرُشُ البُزَاقَ، ثُمَّ

عَمَدَ إِلى رَأْسِي يَغْسِلُهُ، وَإِلَى المَاءِ يُرْسِلهُ، وَمَا لَبِثَ أَنْ دَخَلَ الأَوَّلُ فَحَيَّا أَخْدَعَ الثَّانِي بِمَضُمومَةٍ قَعْقَعَتْ أَنْيابَهُ، وَقَالَ: يَا لُكَعُ مَا لَكَ وَلِهَذا الرَّأْسِ وَهُوَ لِي؟ ثُمَّ عَطَفَ الثَّاني عَلى الأَوَّلِ بِمَجْمُوعَةٍ هَتَكَتْ حِجَابَهُ، وَقالَ: بَلْ هَذَا الرَّأْسُ حَقِّي وَمِلْكِي وَفِي يَدِي، ثُمَّ تَلاكَمَا حتَّى عَيِيَا، وَتَحَاكَمَا لِما بَقِيا، فَأَتَيا صَاحِبَ الحَمَّامِ، فَقَالَ الأَوَّلُ: أَنَا صَاحِبُ هَذا الرَّأْسِ؛ لأَنِّي لَطَّخْتُ جَبِينَهُ، وَوَضَعْتُ عَلَيْهِ طِينَهُ، وَقَالَ الثَّاني: بَلْ أَنَا مَالِكُهُ؛ لأَنشي دَلَكْتُ حَامِلَهُ، وَغَمَزْتُ مَفَاصِلَهُ، فَقَالَ الحَمَّامِيُّ: ائْتُونِي بِصَاحِبِ الرَّأْسِ أَسْأَلهُ، أَلَكَ هذَا الرَّأْسُ أَمْ لَهُ، فَأَتَيَانِي وَقَالا: لَنَا عِنْدَكَ شَهَادَةٌ فَتَجَشَّمْ، فَقُمْتُ وَأَتَيْتُ، شِئْتُ أَمْ أَبَيْتُ، فَقَالَ الحَمَّامِي: يَا رَجُلُ لاَ تَقُل غَيْرَ الصِّدْقِ، وَلا تَشْهَدْ بِغَيْرِ الحَقِّ، وَقُلْ لِي: هذَا الرَّأْسُ لأَيِّهِمَا، فَقُلْتُ: يَا عَافَاكَ اللهُ هذَا رأْسِي، قَدْ صَحِبَنِي فِي الطَّرِيقِ، وَطَافَ مَعِي بِالْبَيْتِ العَتِيقِ، وَمَا شَكَكْتُ أَنَّهُ لِي، فَقالَ لِي: اسْكُتْ يا فُضُولِيُّ، ثُمَّ مالَ إِلى أَحَدِ الخَصْمَيْنِ فَقَالَ: يَا هَذَا إِلَى كَمْ هَذِهِ المُنافَسَةُ مَعَ النَّاسِ، بِهذَا الرَّأْسِ؟ تَسَلَّ عَنْ قَلِيلِ خَطَرِهِ، إِلى لَعْنَةِ اللهِ وَحَرِّ سَقَرِهِ، وَهَبْ أَنَّ هَذا الرَّأْسَ لَيْسَ، وَأَنَا لَمْ نَرَ هذَا التَّيْسَ. قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَقُمْتَ مِنْ ذَلِكَ المَكَانِ خَجِلاً، وَلَبِسْتُ الثِّيابَ وَجِلاً، وَانْسَلَلْتُ مِنْ الحَمَّامِ عَجِلاً، وَسَبَبْتُ الغُلاَمَ بِالعَضِّ وَالمصِّ، وَدَقَقْتُهُ دَقَّ الجِصِّ، وَقُلْتُ لآخَرَ: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِحَجَّامٍ يَحُطُّ عَنِّي هَذا الثِّقَلَ، فَجَاءَنِي بِرَجُلٍ لَطِيفِ البِنْيَةِ، مَلِيحِ الحِلْيَةِ، فِي صُورَةِ الدُّمْيَةِ، فارْتَحْتُ إِلَيْهِ، وَدَخَلَ فَقَالَ: السَّلاَمُ عليْكَ، وَمِنْ أَيِّ بَلَدٍ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: مِنْ قُمَّ، فَقَالَ: حَيَّاكَ اللهُ! مِنْ أَرْضِ النِّعْمَةِ وَالرَّفَاهَةِ وَبَلَدِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَلَقَدْ حَضَرْتُ فِي شَهْرِ رَمضانَ جَامِعَها وَقَدْ أُشْعِلَتْ فِيهِ المَصَابِيحُ، وَأُقِيمتِ التَّرَاويحُ، فَمَا شَعَرْنا إِلاَّ بِمَدِّ النِّيلِ، وَقَدْ أَتَى عَلَى تِلْكَ القَنَادِيلِ، لكِنْ صَنَعَ اللهُ لِي بِخُفٍّ قَدْ كُنْتُ لَبِسْتُهُ رطْباً فَلَمْ يَحْصُلْ طِرَازُهُ على كُمِّهِ، وَعَادَ الصَّبيُّ إِلى أُمِّهِ، بَعْدَ أَنْ صَلَّيْتُ العَتَمَةَ واعْتَدَلَ الظِّلُّ، وَلَكِنْ كَيفَ كَانَ حَجُّكَ؟ هَلْ قَضَيْتَ مَنَاسِكَهُ كَما وَجَبَ، وَصَاحُوا العَجَبَ العَجَبَ؟ فَنَظَرْتُ إِلى المَنَارَةِ، وَمَا أَهْوَنَ الحَرْبَ عَلى النَّظَّارَةِ، وَوجَدْتُ الهَرِيسَةَ عَلى حالِهَا، وَعَلِمْتُ أَنَّ الأَمْرَ بِقَضَاءٍ مِنَ اللهِ وَقَدرٍ، وَإِلَى مَتَى هَذَا الضَّجَرُ؟ وَاليَوْمُ وَغَدُ، وَالسَّبْتُ وَالأَحَدُ، وَلا أَطِيلُ وَمَا هَذا القَالَ وَالقِيلَ؟ وَلَكِنْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ المُبَرِّدَ فِي النَّحْوِ حَدِيدُ المُوسَى فَلاَ تَشْتَغِلْ بِقَوْلِ العَامَّةِ؛ فَلَوْ كَانَتْ الاسْتِطاعَةُ قَبْلَ الفِعْلِ لَكُنْتُ قَدْ حَلَقْتُ رَأْسَكَ، فَهَلْ تَرَى أَنْ نَبْتَدِئَ؟

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَبَقَيْتُ مُتَحَيِّراً مِنْ بَيَانِهِ، فِي هَذَيَانِهِ، وَخَشِيتُ أَنْ يَطُولَ مَجْلِسهُ، فَقُلْتُ: إِلى غَدٍ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَسَأَلْتُ عَنْهُ مَنْ حَضَرَ، فَقَالوا: هَذا رَجُلٌ مِنْ بِلادِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ لَمْ يُوَافِقْهُ هَذا المَاءُ، فَغَلَبَتْ عَلَيْهِ السَّوْدَاءُ، وَهُو طُولَ النَّهارِ يَهْذِي كَمَا تَرَى، وَوَرَاءَهُ فَضْلٌ كَثِيرٌ، فَقُلْتُ: قَدْ سَمِعْتُ بِهِ، وَعَزَّ عَلَيَّ جُنُونُهُ، وَأَنْشأْتُ أَقُولُ:

أَنَا أُعْطِي اللهَ عَهْداً مُحكَماً فِي النَّذْرِ عَقْدَا
لا حَلَقْتُ الرَّأْسَ مَا عِشْـ ـتُ وَلَوْ لاقَيْتُ جَهْدَا

ب - من مقامات الحريرى(٤٤٦-٥١٦ ق)

٣- المقامة الأولى: المقامة الصنعانية

حدّثَ الحارثُ بنُ هَمّامٍ قالَ: لمّا اقتَعدْتُ غارِبَ الاغتِرابِ، وأنْأتْني المَترَبَةُ عنِ الأتْرابِ، طوّحَتْ بي طَوائِحُ الزّمَنِ، الى صنْعاء اليَمَنِ، فدَخَلْتُها خاويَ الوِفاضِ، باديَ الإنْفاضِ، لا أمْلِكُ بُلْغَةً، ولا أجِدُ في جِرابي مُضْغَةً، فطَفِقْتُ أجوبُ طُرُقاتِها مِثلَ الهائِمِ، وأجولُ في حَوْماتِها جَوَلانَ الحائِمِ، وأرُودُ في مَسارِحِ لمَحاتي، ومَسايِحِ غدَواتي ورَوْحاتي، كريماً أُخْلِقُ لهُ ديباجَتي، وأبوحُ إلَيْهِ بحاجتي، أو أديباً تُفَرّجُ رؤيَتُه غُمّتي، وتُزْوي رِوايتُه غُلّتي، حتى أدّتْني خاتِمَةُ المَطافِ، وهدَتْني فاتِحةُ الألْطافِ، الى نادٍ رَحيبٍ، مُحتَوٍ على زِحامٍ ونَحيبٍ، فوَلَجْتُ غابةَ الجمْعِ، لأسْبُرَ مَجْلَبَةَ الدّمْعِ، فرأيتُ في بُهْرَةِ الحَلْقَةِ، شخْصاً شخْتَ الخِلْقَةِ، عليْهِ أُهْبَةُ السّياحَةِ، وله رنّةُ النِّياحَةِ، وهوَ يطْبَعُ الأسْجاعَ بجواهِرِ لفظِهِ، ويقْرَعُ الأسْماعَ بزَواجِرِ وعْظِهِ، وقدْ أحاطَتْ بهِ أخلاطُ الزُّمَرِ، إحاطَةَ الهالَةِ بالقَمَرِ، والأكْمامِ بالثّمرِ، فدَلَفْتُ إليهِ لأقْتَبِسَ من فوائِدِه، وألْتَقِطَ بعْضَ فرائِدِه، فسمِعْتُهُ يقولُ حينَ خبّ في مجالِه، وهَدَرَتْ شَقاشِقُ ارتِجالِه، أيّها السّادِرُ في غُلَوائِهِ، السّادِلُ ثوْبَ خُيَلائِهِ، الجامِحُ في جَهالاتِهِ، الجانِحُ الى خُزَعْبِلاتِه، إلامَ تسْتَمرُّ على غَيّكَ، وتَستَمْرئُ مرْعَى بغْيِكَ؟ وحَتّامَ تتَناهَى في زهوِكَ، ولا تَنْتَهي عن لَهوِكَ؟ تُبارِزُ بمَعصِيَتِكَ، مالِكَ ناصِيَتِكَ! وتجْتَرِئُ بقُبْحِ سيرَتِك، على عالِمِ سَريرَتِكَ! وتَتَوارَى عَن قَريبِكَ، وأنتَ بمَرْأى رَقيبِكَ! وتَستَخْفي مِن مملوكِكَ وما تَخْفى خافِيَةٌ على مَليكِكَ! أتَظُنُّ أنْ ستَنْفَعُكَ حالُكَ، إذا آنَ ارتِحالُكَ؟ أو يُنْقِذُكَ مالُكَ، حينَ توبِقُكَ أعمالُكَ؟ أو يُغْني عنْكَ ندَمُكَ، إذا زلّتْ قدَمُكَ؟ أو يعْطِفُ عليْكَ معشَرُكَ، يومَ يضُمّكَ مَحْشَرُكَ؟ هلاّ انتَهَجْتَ مَحَجّةَ اهتِدائِكَ، وعجّلْتَ مُعالجَةَ دائِكَ، وفَلَلْتَ شَباةَ اعتِدائِكَ، وقدَعْتَ نفْسَكَ فهِيَ أكبرُ أعدائِكَ؟ أما الحِمام ميعادُكَ، فما إعدادُكَ؟ وبالمَشيبِ إنذارُكَ، فما أعذارُكَ؟ وفي اللّحْدِ مَقيلُكَ، فما قِيلُكَ؟ وإلى الله مَصيرُكَ، فمَن نصيرُكَ؟ طالما أيْقَظَكَ الدّهرُ فتَناعَسْتَ، وجذَبَكَ الوعْظُ فتَقاعَسْتَ! وتجلّتْ لكَ العِبَرُ فتَعامَيْتَ، وحَصْحَصَ لكَ الحقُّ فتمارَيْتَ، وأذْكَرَكَ الموتُ فتَناسَيتَ، وأمكنَكَ أنْ تُؤاسِي فما آسيْتَ! تُؤثِرُ فِلساً توعِيهِ، على ذِكْرٍ تَعيهِ، وتَختارُ قَصْراً تُعْليهِ، على بِرٍ تُولِيهِ، وتَرْغَبُ عَنْ هادٍ تَسْتَهْدِيهِ، الى زادٍ تَستَهْديهِ، وتُغلّبُ حُبّ ثوبٍ تشْتَهيهِ، على ثوابٍ تشْتَريهِ، يَواقيتُ الصّلاتِ، أعْلَقُ بقَلبِكَ منْ مَواقيتِ الصّلاةِ، ومُغالاةُ الصَّدُقاتِ، آثَرُ عندَكَ من

مُوالاةِ الصَّدَقاتِ، وصِحافُ الألْوانِ، أشْهى إلَيْكَ منْ صَحائِفِ الأدْيانِ، ودُعابَةُ الأقْرانِ، آنَسُ لكَ منْ تِلاوَةِ القُرْآنِ! تأمُرُ بالعُرْفِ وتَنتَهِكُ حِماهُ، وتَحْمي عنِ النُّكْرِ ولا تَتحاماهُ! وتُزحزِحُ عنِ الظُلْمِ ثمْ تغْشاهُ، وتخْشَى الناسَ واللهُ أحقُّ أنْ تخْشاهُ! ثمّ أنْشَدَ:

تباً لطالِبِ دُنْيا ثَنى إلَيها انصِبابَهْ
ما يسْتَفيقُ غَراماً بها وفَرْطَ صَبابَهْ
ولوْ دَرى لَكفَاهُ مما يَرومُ صُبابَهْ

ثمّ إنّهُ لبّدَ عَجاجَتَهُ، وغيّضَ مُجاجتَهُ، واعْتَضَدَ شكْوَتَهُ، وتأبّطَ هِراوَتَهُ، فلمّا رنَتِ الجَماعَةُ الى تحفُّزِهِ، ورأتْ تأهُّبَهُ لمُزايَلَةِ مركَزِهِ، أدْخَلَ كلٌ منهُمْ يدَهُ في جيْبِهِ، فأفْعَمَ لهُ سَجْلاً منْ سَيْبِه، وقال: اصْرِفْ هَذا في نفقَتِكَ، أو فرّقْهُ على رُفْقَتِكَ، فقبِلَهُ منهُم مُغضِياً، وانْثَنى عنْهُم مُثْنِياً، وجعَلَ يودِّعُ مَنْ يُشيّعُهُ، ليَخْفَى علَيْهِ مَهْيَعُهُ، ويُسرّبُ منْ يتْبَعُهُ، لكَيْ يُجْهَلَ مرْبَعُهُ، قال الحارِثُ بنُ هَمّامٍ: فاتّبعْتُهُ مُوارِياً عنْهُ عِياني، وقَفوْتُ أثرَهُ منْ حيثُ لا يَراني، حتّى انْتَهى الى مَغارَةٍ، فانْسابَ فيها على غَرارَةٍ، فأمْهَلْتُه ريثَما خلَعَ نعْلَيْهِ، وغسَل رِجلَيْهِ، ثمّ هجَمْتُ علَيهِ، فوجدتُهُ مُشافِناً لتِلْميذٍ، على خبْزِ سَميذٍ، وجَدْيٍ حَنيذٍ، وقُبالَتَهُما خابيةُ نبيذٍ، فقلتُ لهُ: يا هذا أيَكونُ ذاكَ خبرَكَ، وهذا مَخْبَرَكَ؟ فزَفَرَ زفْرَةَ القَيْظِ، وكادَ يتميّزُ منَ الغيْظِ، ولمْ يزَلْ يحَمْلِقُ إليّ، حتّى خِفْتُ أن يسطُوَ عليّ، فلمّا أن خبَتْ نارُهُ، وتَوارَى أُوارُهُ، أنْشَد:

لبِسْتُ الخَميصةَ أبغي الخَبيصَهْ وأنْشَبْتُ شِصّيَ في كل شِيصَه
وصيّرتُ وعْظيَ أُحبولَةً أُريـغُ القَنيصَ بها والقَنيصَه
وألْجأني الدّهْرُ حتى ولَجْتُ بلُطْفِ احتِيالي على اللّيثِ عيصَه
على أنّني لم أهَبْ صرفَهُ ولا نبَضَتْ لي مِنْهُ فَريصَه
ولا شرَعت بي على مَوردٍ يُدنّسُ عِرضيَ نفْسٌ حَريصَه
ولو أنْصَفَ الدّهرُ في حُكمِهِ لَما ملّكَ الحُكْمَ أهلَ النّقيصَه

ثمّ قال ليَ: اذْنُ فكُلْ، وإنْ شِئْتَ فقُم وقُلْ، فالتَفَتّ الى تِلميذِه وقُلتُ: عزَمْتُ عليْكَ بمَن تستَدفِعُ بهِ الأذى، لتُخْبرَنّي مَنْ ذا، فقال: هذا أبو زيْدٍ السَّروجيُّ سِراجُ الغُرَباء، وتاجُ الأدَباء، فانصرَفْتُ من حيثُ أتيتُ، وقضَيْتُ العجَبَ ممّا رأيْتُ.

٤- المقامة الحُلوانيّة المقامة الثانية من مقامات الحريري

حَكى الحارِثُ بنُ هَمّامٍ قال: كلِفْتُ مُذْ ميطَتْ عني التّمائِمُ، ونِيطَتْ بيَ العَمائِمُ، بأنْ أغْشى مَعانَ الأدَبِ، وأُنضيَ إليْهِ رِكابَ الطّلَبِ، لأعْلَقَ منْهُ بِما يكونُ لي زينَةً بينَ الأنامِ، ومُزنَةً عندَ الأُوامِ، وكُنْتُ لفَرْطِ اللّهَجِ باقْتِباسِه، والطّمَعِ في تقمّصِ لِباسِهِ، أُباحِثُ كلّ مَنْ جَلّ وقَلّ، وأسْتَسْقي الوَبْلَ والطّلّ، وأتعلّلُ بعَسى ولَعلّ، فلمّا حلَلْتُ حُلْوانَ، وقدْ بلَوْتُ الإخْوانَ، وسَبَرْتُ الأوْزانَ، وخبَرْتُ ما شانَ وَزانَ، ألفَيْتُ بها أبا زيْدٍ السَّروجيَّ يتقلّبُ في قوالبِ الانتِسابِ، ويخْبِطُ في أساليبِ الاكتِسابِ، فيدّعي تارَةً أنّهُ من آلِ ساسانَ، ويعْتَزي مرّةً إلى أقْيالِ غسّانَ، ويبْرُزُ طَوراً في شِعارِ الشّعَراء، ويَلبَسُ حيناً كِبَرَ الكُبَراءِ، بيْدَ أنّهُ معَ تلوّنِ حالِهِ، وتبَيّنِ مُحالِهِ، يتحلّى برُواءٍ ورِوايَةٍ، ومُدراةٍ ودِرايَةٍ، وبَلاغَةٍ رائِعَةٍ، وبَديهةٍ مُطاوعةٍ، وآدابٍ بارِعةٍ، وقدَمٍ لأعْلامِ العُلومِ فارِعةٍ، فكانَ لمحاسِنِ آلاتِهِ، يُلْبَسُ على عِلاّتِه، ولِسَعَةِ رِوايَتِه، يُصْبى إلى رؤيَتِهِ، ولخلابَةِ عارِضَتِهِ، يُرْغَبُ عنْ مُعارضَتِهِ، ولعُذوبَةِ إيرادِهِ، يُسْعَفُ بمُرادِهِ، فتعَلّقتُ بأهْدابِهِ، لخَصائِصِ آدابِهِ، ونافَسْتُ في مُصافاتِهِ، لنَفائِسِ صِفاتِه؛

فكُنتُ بهِ أجْلو هُمومي وأجْتَلي زمانيَ طلقَ الوجْهِ مُلتَمِعَ الضّيا

أرَى قُرْبَهُ قُرْبى ومَغْناهُ غُنْيَةً و رؤيَتَهُ رِيّاً و مَحْياهُ لي حَيا

ولَبِثْنا على ذلِكَ بُرْهَةً، يُنْشئ لي كلَّ يومٍ نُزهَةً، ويدْرَأُ عن قلبي شُبهَةً، إلى أنْ جدَحَتْ لهُ يَدُ الإمْلاقِ، كأس الفِراقِ، وأغْراهُ عدَمُ العُراقِ، بتَطْليقِ العِراقِ، ولفَظَتْهُ مَعاوِزُ الإرْفاقِ، إلى مَفاوِزِ الآفاقِ، ونظَمَهُ في سِلْكِ الرّفاقِ، خُفوقُ رايةِ الإخْفاقِ، فشحَذَ للرّحْلَةِ غِرارَ عزْمَتِهِ، وظَعَنَ يقْتادُ القلْبَ بأزِمّتِهِ؛

فما راقَني مَنْ لاقَني بعْدَ بُعْدِهِ ولا شاقَني مَنْ ساقني لوِصالِهِ

ولا لاحَ لي مُذْ ندّ نِدٌ لفَضْلِهِ ولا ذو خِلالٍ حازَ مثلَ خِلالِهِ

واسْتَسَرّ عني حيناً، لا أعرِفُ لهُ عَريناً، ولا أجِدُ عنْهُ مُبيناً، فلمّا أُبْتُ منْ غُربَتي، إلى منْبِتِ شُعْبَتي، حضَرْتُ دارَ كُتُبِها التي هيَ مُنتَدى المتأدّبينَ، ومُلتَقَى القاطِنينَ منهُمْ والمُتغرّبينَ، فدخَلَ ذو لِحْيَةٍ كثّةٍ، وهيئَةٍ رثّةٍ، فسلّمَ على الجُلاّسِ، وجلَسَ في أُخرَياتِ الناسِ، ثمّ أخذَ يُبْدي ما في وِطابِهِ، ويُعْجِبُ الحاضِرينَ بفصْلِ خِطابِهِ، فقال لمَنْ يَليه: ما الكِتابُ الذي تنظُرُ فيهِ؟ فقالَ: ديوانُ أبي عُبادةَ، المشْهودِ لهُ بالإجادَةِ، فقال: هلْ عثَرْتَ لهُ فيما لمحْتَهُ، على بَديعٍ استَملَحْتَهُ؟ قال: نعمْ قولُه :

كأنّما تبْسِمُ عن لُؤلُؤٍ منضّدٍ أو برَدٍ أو أقاحْ

فإنّهُ أبدَعَ في التّشبيهِ، المُودَعِ فيهِ، فقالَ لهُ: يا لَلعجَبِ ولَضَيْعَةِ الأدبِ! لقدِ استَسْمَنْتَ يا هَذا ذا ورَمٍ، ونَفَخْتَ في غيرِ ضرَمٍ، أينَ أنتَ منَ البيْتِ النّدْرِ، الجامِعِ مُشَبّهاتِ الثّغْرِ؟ وأنْشَد:

نفْسي الفِداءُ لثَغْرٍ راقَ مبسِمُهُ وزانَهُ شنَبٌ ناهيكَ من شنَبِ

يفترُّ عن لُؤلُؤٍ رطْبٍ وعن برَدٍ وعن أقاحٍ وعن طلْعٍ وعن حبَبِ

فاستَجادَهُ مَنْ حضَر واسْتَحْلاهُ، واستَعادَهُ منْهُ واسْتمْلاهُ، وسُئِلَ: لمنْ هذا البيتُ، وهلْ حيٌّ قائِلُهُ أو ميْتٌ؟ فقال: أيْمُ اللهِ لَلحَقُّ أحَقُّ أنْ يُتّبَعَ، ولَلصّدْقُ حَقيقٌ بأنْ يُستَمَعَ، إنّهُ يا قَوْمُ! لنَجيّكُمْ مُذُ اليوْم، قال: فكأنّ الجَماعَةَ ارْتابَتْ بعزْوَتِه، وأبَتْ تصْديقَ دعْوَته، فتوجّسَ ما هجَسَ في أفْكارِهِمْ، وفطِنَ لِما بَطَنَ مِنِ استِنْكارِهِمْ، وحاذَرَ أنْ يفْرُطَ إليْهِ ذمّ، أو يَلْحَقَهُ وصْمٌ، فقرأ: إنّ بعْضَ الظنّ إثْمٌ، ثم قال: يا رُواةَ القَريضِ! وأُساةَ القوْلِ المَريضِ! إنّ خُلاصَةَ الجوهَرِ تظهَرُ بالسّبْكِ، ويدَ الحقّ تصْدَعُ رِداءَ الشّكّ، وقدْ قيلَ فيما غبَرَ منَ الزّمانِ: عندَ الامتِحانِ، يُكرَمُ الرّجُلُ أو يُهانُ، وها أنا قدْ عرّضْتُ خبيئَتي للاخْتِبارِ، وعرَضْتُ حَقيبَتي على الاعْتِبارِ، فابْتَدَر أحدُ مَنْ حضَرَ، وقال: أعرِفُ بيْتاً لمْ يُنسَجْ على مِنْوالِهِ، ولا سمَحَتْ قَريحةٌ بمِثالِهِ، فإنْ آثَرْتَ اختِلابَ القُلوبِ، فانْظِمْ على هذا الأسْلوبِ، وأنْشَدَ:

فأمطَرَتْ لؤلؤاً من نرْجِسٍ وسقَتْ وَرْداً وعضّتْ على العُنّابِ بالبَرَدِ

فلم يكُنْ إلا كلَمْحِ البَصَرِ أو هُوَ أقرَبُ، حتى أنْشَدَ فأغْرَب:

سألتُها حينَ زارَتْ نَضْوَ بُرْقُعِها الـ ـقاني وأيداعَ سمْعي أطيَبَ الخبَرِ

فزَحزَحَتْ شفَقاً غشّى سَنا قمَرٍ وساقَطَتْ لُؤلؤاً من خاتَمٍ عطِرِ

فحارَ الحاضِرونَ لبَداهَتِه، واعتَرَفوا بنَزاهَتِه، فلمّا آنَسَ استِئْناسَهُمْ بكَلامِهِ، وانصِبابَهُمْ إلى شِعْبِ إكْرامِهِ، أطْرَقَ كطَرْفَةِ العَينِ، ثمّ قال : ودونَكُمْ بيتَينِ آخرَينِ، وأنشدَ :

وأقبَلَتْ يومَ جدّ البينُ في حُلَلٍ سودٍ تعَضُّ بَنانَ النّادِمِ الحَصِرِ

فلاحَ ليْلٌ على صُبْحٍ أقلّهُما غُصْنٌ وضرّسَتِ البِلّورَ بالدَّرَرِ

فحينَئذٍ استَسْنى القوْمُ قيمَتَهُ، واستَغْزَروا ديمَتَهُ، وأجْمَلوا عِشْرَتَهُ، وجمّلوا قِشرَتَهُ، قال المُخْبِرُ بهَذِهِ الحِكايَةِ: فلمّا رأيتُ تلهُّبَ جذْوَتِهِ، وتألُّقَ جلْوَتِهِ، أمعَنْتُ النّظَرَ في توسُّمِهِ، وسرّحْتُ الطّرْفَ في ميسِمِهِ، فإذا هوَ شيخُنا السَّروجيّ، وقدْ أقْمَرَ ليلُه الدّجُوجيُّ، فهنّأتُ نفسي بمَوردِهِ، وابتدَرْتُ اسْتِلام يدِهِ، وقلتُ لهُ: ما الذي أحالَ صفَتَكَ، حتى جهِلْتُ معرِفَتَكَ؟ وأيّ شيء شيّبَ لحيَتَكَ، حتى أنْكَرْتُ حِليَتَكَ؟ فأنشأ يقول:

وقْعُ الشّوائِبِ شيّبْ والدّهرُ بالناسِ قُلَّبْ

إنْ دانَ يوماً لشَخْصٍ ففي غدٍ يتغلّبْ
فلا تثِقْ بوَميضٍ منْ برْقِهِ فهْوَ خُلّبْ
واصْبِرْ إذا هوَ أضْرى بكَ الخُطوبَ وألّبْ
فما على التِّبْرِ عارٌ في النّارِ حينَ يُقلَّبْ
ثمّ نهضَ مُفارِقاً موضِعَهُ، ومُستَصْحِباً القُلوبَ معَهُ.

٥- المقامة الدّينارية المقامة الثالثة من مقامات الحريري

رَوى الحارثُ بنُ هَمّامٍ قال: نظَمَني وأخْداناً لي نادٍ، لمْ يخِبْ فيه مُنادٍ، ولا كَبا قدْحُ زِنادٍ، ولا ذكَتْ نارُ عِنادٍ، فبيْنَما نحنُ نتجاذَبُ أطْرافَ الأناشيدِ، ونَتوارَدُ طُرَفَ الأسانيدِ، إذْ وقَفَ بِنا شخْصٌ علَيْهِ سمَلٌ، وفي مِشيَتِهِ قزَلٌ، فقال: يا أخايِرَ الذّخائِرِ! وبشائِرَ العَشائِرِ! عِموا صَباحاً! وأنْعِموا اصطِباحاً! وانظُروا إلى مَنْ كان ذا نَديّ ونَدًى، وجِدَةٍ وجَداً، وعَقارٍ وقُرًى، ومَقارٍ وقِرًى، فما زالَ بهِ قُطوبُ الخُطوبِ، وحُروبِ الكُروبِ، وشَرَرُ شرِّالحَسودِ، وانْتِيابُ النّوَبِ السّودِ، حتى صفِرَتِ الرّاحَةُ، وقرِعَتِ الساحَةُ، وغارَ المنْبَعُ، ونَبا المَرْبَعُ، وأقْوى المجْمَعُ، وأقَضّ المضْجَعُ، واستَحالَتِ الحالُ، وأعْوَلَ العِيالُ، وخَلَتِ المَرابِطُ، ورَحِمَ الغابِطُ، وأودى النّاطِقُ والصّامِتُ، ورَثى لَنا الحاسِدُ والشّامِتُ، وآلَ بِنا الدّهرُ الموقِعُ، والفَقْرُ المُدْقِعُ، إلى أنِ احْتَذيْنا الوَجى، واغْتذينا الشّجا، واستَبْطَنّا الجَوى، وطَوَيْنا الأحْشاءَ على الطّوى، واكْتَحَلْنا السُهادَ، واستَوطَنّا الوِهادَ، واستوطأنا القتاد، وتناسينا الأقتاد، واستطبنا الحين المجتاح واستَبْطأنا اليومَ المُتاحَ، فهل من حُرِّ آسٍ، أو سمْحٍ مُواسٍ؟ فوَالّذي استَخْرَجَني من قَيلَه، لقَد أمْسَيتُ أخا عَيْلَه، لا أمْلِكُ بيْتَ ليْلَه، قال الحارِثُ بنُ همّامٍ: فأوَيْتُ لمَفاقِرِه، ولوَيتُ إلى استِنْباطِ فِقَرِهِ، فأبْرَزتُ ديناراً، وقُلتُ لهُ اختِباراً: إنْ مدَحْتَهُ نَظْماً، فهوَ لكَ حتْماً، فانْبَرى يُنشِدُ في الحالِ، من غيرِ انتِحال:

أكْرِمْ بهِ أصفَرَ راقَتْ صُفرَتُهْ جوّابَ آفاقٍ ترامَتْ سَفرَتُهْ
مأثورَةٌ سُمعَتُهُ وشُهرَتُهْ قد أُودِعَتْ سِرَّ الغِنى أسرّتُهْ
وقارَنَتْ نُجحَ المَساعي خطرَتُه وحُبِّبَتْ إلى الأنامِ غُرّتُهْ
كأنّما منَ القُلوبِ نُقْرَتُهْ بهِ يصولُ مَنْ حوَتْهُ صُرّتُهْ
وإنْ تَفانَتْ أو توانَتْ عِتْرَتُهْ يا حبّذا نُضارُهُ ونَضْرَتُهْ
وحبّذا مَغْناتُهُ ونصْرَتُهْ كمْ آمِرٍ بهِ استَتَبّتْ إمرَتُهْ

ومُتْرَفٍ لوْلاهُ دامَتْ حسْرَتُهْ وجيْشِ همٍّ هزمَتْهُ كرّتُهْ
وبدرِ تِمٍّ أنزَلَتْهُ بدْرَتُهْ ومُستَشيطٍ تتلظّى جمْرَتُهْ
أسَرّ نجْواهُ فلانَتْ شِرّتُهْ وكمْ أسيرٍ أسْلمَتْهُ أُسرَتُهْ
أنقَذَهُ حتى صفَتْ مسرّتُهْ وحقٍّ موْلًى أبدَعَتْهُ فِطْرَتُهْ
لوْلا التُقَى لقُلتُ جلّتْ قُدرتُهْ

ثم بسَط يدَهُ، بعدَما أنْشدَهُ، وقال: أنْجزَ حُرٌ ما وعَدَ، وسَحّ خالٌ إذ رَعَدَ، فنبَذْتُ الدّينارَ إليْهِ، وقلتُ: خُذْهُ غيرَ مأسوفٍ علَيْهِ، فوضَعهُ في فيهِ، وقال: بارِك اللهُمّ فيهِ، ثمّ شمّرَ للانْثِناء، بعْدَ توفِيَةِ الثّناء، فنشأتْ لي منْ فُكاهَتِه نشوَةُ غرامٍ، سهّلَتْ عليّ ائْتِنافَ اغْتِرامٍ، فجرّدْتُ ديناراً آخَرَ وقلتُ لهُ: هلْ لكَ في أنْ تذُمّهُ، ثم تضُمّهُ؟ فأنشدَ مُرتَجِلاً، وشَدا عجِلاً :

تبّاً لهُ من خادِعٍ مُماذِقِ أصْفَرَ ذي وجْهَيْنِ كالمُنافِقِ
يَبدو بوَصْفَينِ لعَينِ الرّامِقِ زينَةِ معْشوقٍ ولوْنِ عاشِقِ
وحُبّهُ عندَ ذَوي الحَقائِقِ يدْعو إلى ارتِكابِ سُخْطِ الخالِقِ
لوْلاهُ لمْ تُقْطَعْ يَمينُ سارِقِ ولا بدَتْ مظْلِمَةٌ منْ فاسِقِ
ولا اشْمأزّ باخِلٌ منْ طارِقِ ولا شكا المَمطولُ مطلَ العائِق
ولا استُعيذَ منْ حَسودٍ راشِقِ وشرّ ما فيهِ منَ الخلائِقِ
أنْ ليسَ يُغْني عنْكَ في المَضايِقِ إلاّ إذا فرّ فِرارَ الآبِقِ
واهاً لمَنْ يقْذِفُهُ منْ حالِقِ ومَنْ إذا ناجاهُ نجْوى الوامِقِ
قال لهُ قوْلَ المُحقّ الصّادِقِ لا رأيَ في وصلِكَ لي ففارِقِ

فقلتُ له: ما أغزَرَ وبْلَكَ! فقال: والشّرْطُ أمْلَكُ، فنفَحتُهُ بالدّينارِالثّاني، وقلتُ لهُ: عوّذهُما بالمَثاني، فألْقاهُ في فمِهِ، وقرَنَهُ بتوأمِهِ، وانْكفأ يحمَدُ مغْداهُ، ويمْدَحُ النّاديَ ونَداهُ، قالَ الحارِثُ بنُ همّامٍ: فناجاني قلبي بأنّهُ أبوزيدٍ، وأنّ تعارُجَهُ لِكَيدٍ، فاستَعَدْتُهُ وقلتُ له: قد عُرِفْتَ بوشْيِكَ، فاستَقِمْ في مشيكَ، فقال: إنْ كُنتَ ابنَ هَمّامٍ، فحُيّيتَ بإكْرامٍ، وحَييتَ بينَ كِرامٍ فقلتُ: أنا الحارثُ، فكيفَ حالُك والحوادِثُ؟ فقال: أتقلّبُ في الحالَينِ بُؤسٍ ورَخاءٍ، وأنقَلِبُ مع الرّيحَينِ زعْزَعٍ ورُخاءٍ، فقلتُ: كيفَ ادّعَيْتَ القَزَلَ؟ وما مِثلُكَ مَن هزَلَ، فاستَسَرّ بِشرُهُ الذي كانَ تجلّى، ثمّ أنشَدَ حينَ ولّى:

تعارَجْتُ لا رَغبَةً في العرَجْ ولكِنْ لأقْرَعَ بابَ الفرَجْ

وأُلْقيَ حبْلي على غارِبي وأسلُكَ مسْلَكَ مَن قد مرَجْ
فإنْ لامَني القومُ قلتُ اعذِروا فليسَ على أعْرَجٍ من حرَجْ

٦- المقامة الدّمياطيّة المقامة الرابعة من مقامات الحريري

أخبَرَ الحارثُ بنُ هَمّامٍ قال: ظعَنْتُ الى دُمْياطَ، عامَ هِياطٍ ومِياطٍ، وأنا يومئِذٍ مرْموقُ الرَّخاء، موموقُ الإخاء، أسْحَبُ مَطارِفَ الثّراء، وأجْتَلي معارِفَ السّرّاء، فرافَقْتُ صَحْباً قد شَقّوا عَصا الشِّقاقِ، وارْتَضَعوا أفاوِيقَ الوِفاقِ، حتى لاحُوا كأسْنانِ المُشْطِ في الاستِواء، وكالنّفْسِ الواحِدَةِ في التِئامِ الأهْواء، وكُنّا مع ذلِك نسيرُ النّجاء، ولا نرْحَلُ إلا كُلّ هَوْجاء، وإذا نزَلْنا منزِلاً، أو وَرِدْنا مَنْهَلاً، اخْتلَسْنا اللُّبْثَ، ولمْ نُطِلِ المُكْثَ، فعنّ لَنا إعْمالُ الرِّكابِ، في ليلةٍ فَتيّةِ الشّبابِ، غُدافيّةِ الإهابِ، فأسرَيْنا الى أن نَضا اللّيلُ شَبابَهُ، وسلَتَ الصّبحُ خِضابَهُ، فحينَ مِلْنا السُرَى، ومِلْنا الى الكَرى، صادَفْنا أرْضاً مُخضَلّةَ الرُّبا، مُعتلّةَ الصَّبا، فتخيّرْناها مُناخاً للعِيسِ، ومَحطّاً للتّعريسِ، فلمّا حلّها الخَليطُ، وهَدا بها الأطيطُ والغَطيطُ، سمِعْتُ صَيّتاً منَ الرّجالِ، يقولُ لسَميرِه في الرّحالِ: كيفَ حُكْمُ سيرَتِكَ، معَ جيلِكَ وجيرتِكَ؟ فقال: أرْعَى الجارَ، ولوْ جارَ، وأبذُلُ الوِصالَ، لمَنْ صالَ، وأحْتَمِلُ الخَليطَ، ولوْ أبْدى التّخليطَ، وأودّ الحَميمَ، ولو جرّعَني الحَميمَ، وأفضّلُ الشّفيقَ، على الشّقيقِ، وأفي للعَشيرِ، وإنْ لمْ يُكافِئْ بالعَشيرِ، وأستَقِلّ الجَزيلَ، للنّزيلِ، وأغمُرُ الزّميلَ، بالجميلِ، وأنزّلُ سَميري، منزِلَةَ أميري، وأُحِلّ أنيسي، محَلّ رَئيسي، وأُودِعُ مَعارِفي، عَوارِفي، وأُولي مُرافِقي، مَرافقي، وأُلينُ مَقالي، للقالي، وأُديم تَسْآلي، عنِ السّالي، وأرْضى منَ الوَفاء، باللَّفاء، وأقْنَعُ منَ الَجزاء، بأقَلّ الأجزاء، ولا أتظلّمُ، حينَ أُظلَمُ، ولا أنْقَمُ، ولو لدَغَني الأرقَمُ، فقال لهُ صاحبُه: ويْكَ يا بُنيّ إنّما يُضَنّ بالضّنينِ، ويُنافَسُ في الثّمينِ، لكِنْ أنا لا آتي، غيرَ المُؤاتي، ولا أسِمْ العاتي، بمُراعاتي، ولا أُصافي، مَنْ يأبى إنْصافي، ولا أُواخي، مَنْ يُلْغي الأواخي، ولا أُمالي، مَنْ يُخيّبُ آمالي، ولا أُبالي بمَنْ صرَمَ حِبالي، ولا أُداري، مَنْ جهِلَ مِقداري، ولا أُعطي زِمامي، مَنْ يُخْفِرُ ذِمامي، ولا أبْذُلُ وِدادي، لأضْدادي، ولا أدَعُ إيعادي، للمُعادي، ولا أغرِسُ الأيادي، في أرضِ الأعادي، ولا أسمَحُ بمُواساتي، لمَنْ يفْرَحُ بمَساءاتي، ولا أرى التِفاتي، الى مَن يشْمَتُ بوَفاتي، ولا أخُصّ بحِبائي، إلا أحبّائي، ولا أستَطِبّ لدائي، غيرَ أوِدّائي، ولا أمَلّكُ خُلّتي، مَنْ لا يسُدّ خَلّتي، ولا أصَفّي نيّتي، لمَنْ يتمنّي منيّتي، ولا أُخْلِصُ دُعائي، لمَنْ لا يُفعِمُ وِعائي، ولا أُفرِغُ ثَنائي، على مَنْ يفْرغُ إنائي، ومنْ حكمَ بأنْ أبذُلَ وتخْزُنَ، وألينَ وتخْشُنَ، وأذوبَ وتجْمُدَ، وأذْكو وتخْمُدَ؟ لا واللهِ بلْ نتَوازَنُ في المَقالِ، وزْنَ المِثْقالِ، ونَتحاذَى في الفِعالِ، حذْوَ النّعالِ، حتى نأنَ التّغابُنَ، ونُكْفى التّضاغُنَ، وإلا فلِمَ أعُلّكَ وتُعلّني، وأُقلّكَ

وتستَقلّني، وأجتَرِحُ لكَ وتجرَحُني، وأسْرَحُ إليْكَ وتُسرّحُني؟ وكيف يُجْتَلَبُ إنْصافٌ بضَيْمٍ، وأنّى تُشرِقُ شمْسٌ معَ غيْمٍ؟ ومتى أُصْحِبَ وُدٌ بعَسْفٍ، وأيّ حُرّ رضيَ بخُطّةِ خسْفٍ؟ ولله أبوكَ حيثُ يقول:

جزَيْتُ مَنْ أعلَقَ بي وُدَّهُ جَزاءَ مَنْ يبْني على أُسّهِ

وكِلْتُ للخِلّ كما كالَ لي على وَفاء الكَيْلِ أو بخْسِهِ

ولمْ أُخَسِّرْهُ وشَرُّ الوَرى مَنْ يوْمُهُ أخْسَرُ منْ أمْسِهِ

وكلُّ منْ يطلُبُ عِندي جَنى فما لهُ إلا جَنى غرْسِهِ

لا أبتَغي الغَبْنَ ولا أنْثَني بصَفقَةِ المغْبونِ في حِسّهِ

ولسْتُ بالموجِبِ حقاً لمَنْ لا يوجِبُ الحقَّ على نفسِهِ

ورُبّ مَذاقِ الهَوى خالَني أصْدُقُهُ الوُدّ على لَبْسِهِ

وما دَرى منْ جهلِهِ أنّني أقْضي غَريمي الدّينَ منْ جِنسِه

فاهجُرْ منِ استَغباكَ هجرَ القِلى وهَبْهُ كالمَلْحودِ في رمْسِهِ

والبَسْ لمَنْ في وصْلِهِ لُبسَةٌ لباسَ مَنْ يُرْغَبُ عنْ أُنسِهِ

ولا تُرَجِّ الوُدَّ ممّنْ يرَى أنّك مُحْتاجٌ الى فَلْسِهِ

قال الحارثُ بنُ همّام: فلمّا وعَيتُ ما دارَ بينهُما، تُقْتُ الى أن أعرِفَ عينَهُما، فلمّا لاحَ ابنُ ذُكاء، وألحَفَ الجوَّ الضّياءُ، غدَوْتُ قبلَ استِقلالِ الرّكابِ، ولا اغتِداءَ الغُرابِ، وجعلْتُ أستَقْري صوْبَ الصّوتِ اللّيْليّ، وأتوسّمُ الوُجوهَ بالنّظَرِالجَليّ، الى أنْ لمحْتُ أبا زيْدٍ وابنَهُ يتحادَثان، وعلَيهِما بُرْدانِ رثّانِ، فعَلِمتُ أنّهُما نجِيّا ليلَتي، ومُعْتَرَى رِوايَتي، فقَصَدْتُهُما قصْدَ كلِفٍ بدَماثَتِهِما، راثٍ لرَثاثَتِهِما، وأبَحْتُهُما التحَوّلَ الى رحْلي، والتّحكّمَ في كُثْري وقُلّي، وطَفِقْتُ أُسيّرُ بينَ السّيّارةِ فضْلَهُما، وأهُزّ الأعْوادَ المُثمِرَةَ لهُما، الى أنْ غُمِرا بالنُّحْلانِ، واتُّخِذا منَ الخُلاّنِ، وكُنّا بمعرَّسٍ نتبيّنُ منْهُ بُنْيانَ القُرَى، ونتنوّرُ نيرانَ القِرَى، فلمّا رأى أبو زيدٍ امتِلاءَ كِيسِهِ، وانجِلاءَ بُوسِهِ، قال لي: إنّ بدَني قدِ اتّسَخَ، ودرَني قد رسَخَ، أفتأذَنُ لي في قصْدِ قريَةٍ لأستَحمّ، وأقضيَ هذا المُهِمَّ؟ فقلتُ: إذا شِئْتَ فالسّرعَةَ السّرْعَهْ، والرّجعَةَ الرّجْعَهْ! فقال: ستجِدُ مطْلَعي عليْكَ، أسرَعَ منِ ارْتِدادِ طرْفِكَ إليْكَ، ثمّ استَنّ استِنانَ الجَوادِ في المِضْمارِ، وقال لابْنِهِ: بَدارِ بَدارِ! ولمْ نخَلْ أنّهُ غَرَّ، وطلَبَ المفَرّ، فلبِثْنا نرقُبُهُ رِقبَةَ الأعْيادِ، ونستَطلِعُهُ بالطّلائِعِ والرّوّادِ، الى أنْ هَرِمَ النّهارُ، وكادَ جُرُفُ اليومِ ينْهارُ، فلمّا طالَ أمَدُ الانتِظارِ، ولاحَتِ الشمسُ في الأطْمارِ، قُلتُ لأصْحابي: قد تَناهَيْنا في المُهْلَةِ، وتمادَيْنا في الرّحلَةِ، الى أنْ أضَعْنا

الزّمانَ، وبانَ أنّ الرجُلَ قد مان، فتأهّبوا للظّعَنِ، ولا تَلْووا على خضْراء الدِّمنِ، ونَهَضْتُ لأحدِجَ راحِلَتي، وأتحمّلَ لرِحلَتي، فوجدْتُ أبا زيْدٍ قد كتبَ، على القَتَبِ:

يا مَنْ غَدا لي ساعِداً ومُساعِداً دونَ البَشَرْ
لا تحْسَبَنْ أنّي نأي تُكَ عنْ مَلالٍ أو أشَرْ
لكنّني مُذْ لمْ أزَلْ ممّنْ إذا طَعِمَ انتشَرْ

قال: فأقْرَأتُ الجَماعةَ القتَبَ، ليعْذِرَهُ منْ كان عتَبَ، فأُعجِبوا بخُرافَتِه، وتعوّذوا منْ آفَتِه، ثمّ إنّا ظعَنّا، ولمْ نذْرِ منِ اعتاضَ عنّا.

٧- المقامة الكوفيّة من مقامات الحريري

حَكى الحارثُ بنُ همّامٍ قال: سمَرْتُ بالكوفَةِ في ليلَةٍ أديمُها ذو لوْنَينِ، وقمرُها كتَعْويذٍ من لُجَينٍ، معَ رُفقَةٍ غُذوا بلِبانِ البَيانِ، وسحَبوا على سَحْبانَ ذيْلَ النّسْيانِ، ما فيهِمْ إلا مَنْ يُحْفَظُ عنْهُ ولا يُتَحفَّظُ منْهُ، ويَميلُ الرّفيقُ إليهِ ولا يَميلُ عنهُ، فاستَهْوانا السّمَرُ، الى أنْ غرَبَ القمَرُ، وغلَبَ السّهَرُ، فلمّا روّقَ الليْلُ البَهيمُ، ولمْ يبْقَ إلا التّهويمُ، سمِعْنا منَ البابِ نبْأةَ مُستَنْبِحٍ، ثمّ تلَتْها صكّةُ مُستفْتِحٍ، فقُلنا: منِ المُلِمّ، في اللّيلِ المُدْلَهِمّ؟ فقال:

يا أهلَ ذا المَغْنى وُقيتُمْ شَرّا ولا لَقيتُمْ ما بَقيتُمْ ضُرّا
قدْ دفَعُ الليلُ الذي اكْفَهَرّا الى ذَراكُمُ شَعِثاً مُغْبَرّا
أخا سِفارٍ طالَ واسْبَطَرّا حتى انْثَنى مُحْقَوْقِفاً مُصْفَرّا
مثلَ هِلالِ الأُفْقِ حينَ افْتَرّا وقد عَرا فِناءكُمْ مُعْتَرّا
وأمَّكُمْ دونَ الأنام طُرّا يبْغي قِرًى منكُمْ ومُستَقَرّا
فَدونَكُمْ ضَيْفاً قَنوعاً حُرّا يرْضَى بما احْلَوْلى وما أمَرّا
وينثَني عنْكُمْ ينُثّ البِرّا

قال الحارثُ بنُ هَمّامٍ: فلمّا خلَبَنا بعُذوبَةِ نُطقِهِ، وعلِمْنا ما وَراء برْقِه، ابتَدَرْنا فتْحَ البابِ، وتلَقّيناهُ بالتّرْحابِ، وقُلْنا للغُلامِ: هيّا هَيّا، وهلُمّ ما تَهيّا! فقالَ الضّيفُ: والذي أحَلّني ذَراكُمْ، لا تلَمّظْتُ بقِراكُمْ، أو تَضْمَنوا لي أنْ لا تتّخِذوني كَلاًّ، ولا تجَشّموا لأجْلي أكْلاً، فرُبّ أكْلَةٍ هاضَتِ الآكِلَ، وحرَمَتْهُ مآكِلَ، وشَرُّ الأضْيافِ مَنْ سامَ التّكليفَ، وآذَى المُضيفَ، خُصوصاً أذًى يعْتَلِقُ بالأجْسامِ، ويُفْضي الى الأسْقامِ، وما قيلَ في المثَلِ الذي سارَ

سائِرُهُ: خيرُ العَشاء سَوافِرُهُ، إلا ليُعَجَّلَ التّعَشّي، ويُجْتَنَبَ أكْلُ اللّيلِ الذي يُعْشي، اللهُمّ إلاّ أن تقِدَ نارُ الجوعِ، وتَحولَ دونَ الهُجوعِ، قال: فكأنّهُ اطّلعَ على إرادَتِنا، فرَمى عنْ قوْسِ عَقيدَتِنا، لا جَرَم أنّا آنَسْناهُ بالتِزامِ الشّرْطِ، وأثْنَينا على خُلُقِهِ السّبْطِ، ولمّا أحْضَرَ الغُلامُ ما راجَ، وأذْكى بينَنا السّراجَ، تأمّلتُهُ فإذا هوَ أبو زيْدٍ فقُلتُ لصَحْبي: ليُهْنَأكُمُ الضّيفُ الوارِدُ، بلِ المَغْنَمُ البارِدُ، فإنْ يكُنْ أفَلَ قمَرُ الشِّعْرَى فقدْ طلَعَ قمَرُ الشِّعْرِ، أوِ استَسَرّ بدْرُ النّثْرَةِ فقدْ تبلّجُ بدْرُ النّثْرِ، فسرَتْ حُمَيّا المسَرّةِ فيهِمْ، وطارَتِ السِّنَةُ عنْ مآقِيهِمْ، ورَفَضوا الدَّعَةَالتي كانوا نَوَوْها، وثابُوا الى نشْرِ الفُكاهَةِ بعْدَما طوَوْها، وأبو زيْدٍ مُكِبٌّ على إعْمالِ يدَيْهِ، حتى إذا استَرْفَعَ ما لدَيْهِ، قلتُ لهُ: أطْرِفْنا بغَريبَةٍ منْ غَرائِبِ أسْمارِكَ، أو عَجيبَةٍ منْ عَجائِبِ أسفارِكَ، فقال: لقدْ بلَوْتُ منَ العَجائِبِ ما لمْ يرَهُ الرّاؤونَ، ولا رواهُ الرّاوونَ، وإنّ منْ أعجبِها ما عايَنْتُهُ الليلَةَ قُبَيلَ انْتِيابِكُمْ، ومَصيري الى بابِكُمْ، فاستَخْبَرْناهُ عَنْ طُرفَةِ مَرآهُ، في مسرَحِ مسْراهُ، فقال: إنّ مَراميَ الغُربَةِ، لفَظَتْني الى هذِهِ التُّرْبَةِ، وأنا ذو مَجاعَةٍ وبوسَى، وجِرابٍ كفؤادِ أمّ موسَى، فنهَضْتُ حينَ سَجا الدُجى، على ما بي منَ الوَجَى، لأرْتادَ مُضيفاً، أو أقْتادَ رَغيفاً، فساقَني حادِي السّغَبِ، والقضاءُ المُكنّى أبا العجَبِ، الى أنْ وقفْتُ على بابِ دارٍ، فقلْتُ على بِدارٍ:

حُييتُمُ يا أهلَ هذا المنزِلِ وعِشتُمُ في خفضِ عيشٍ خضِلِ
ما عندكُمْ لابنِ سَبيلٍ مُرمِلِ نِضْوِ سُرًى خابِطِ ليْلٍ ألْيَلِ
جَوِي الحَشى على الطّوى مُشتَمِلِ ما ذاقَ مذْ يومانِ طعمَ مأكَلِ
ولا لهُ في أرضِكُمْ منْ مَوْئِلِ وقد دَجا جُنْحُ الظّلامِ المُسبِلِ
وهْوَ منَ الحَيرَةِ في تملْمُلِ فهلْ بهَذا الرَّبعِ عذبُ المنهَلِ
يقول لي: ألْقِ عَصاكَ وادخُلِ وابْشَرْ ببِشْرٍ وقِرًى مُعجَّلِ

قال: فبرزَ إليّ جَوْذَرٌ، عليهِ شَوْذَرٌ، وقال:

وحُرمَةِ الشّيخِ الذي سنّ القِرَى وأسّسَ المحْجوجَ في أُمّ القُرَى
ما عِندَنا لِطارِقٍ إذا عَرا سوى الحديثِ والمُناخِ في الذَّرَى
وكيفَ يقْري مَنْ نَفى عنه الكَرى طوًى برَى أعظُمَهُ لمّا انْبَرى
فما تَرى فيما ذكرتُ ما تَرى

فقُلتُ: ما أصْنَعُ بمنزِلٍ قَفرٍ، ومُنزِلٍ حِلفِ فَقْرٍ؟ ولكِنْ يا فَتى ما اسمُكَ، فقدْ فتَنَني فهْمُكَ؟ فقال: اسمي زيْدٌ، ومَنشإي فَيْدٌ، ووَردتُ هذِهِ المَدَرَةَ أمْسِ، معَ أخْوالي منْ بَني عبْسٍ، فقلتُ لهُ: زِدْني إيضاحاً عِشْتَ، ونُعِشْتَ!

فقال: أخبرَتْني أمّي بَرّةُ، وهيَ كاسْمِها برّةٌ، أنّها نكَحَتْ عامَ الغارَةِ بماوانَ، رجُلاً من سَراةِ سَروجَ وغسّانَ، فلمّا آنَسَ منْها الإثْقال، وكان باقِعةً على ما يُقال، ظعَنَ عنْها سِرّاً، وهَلُمّ جَرّاً، فما يُعْرَفُ أحَيٌّ هوَ فيُتوَقّعَ، أم أودعَ اللّحْدَ البَلْقَعَ؟ قال أبو زيْدٍ: فعلِمْتُ بصِحّةِ العَلاماتِ أنّه ولَدي، وصدَفَني عنِ التّعرُّفِ إليْهِ صَفْرُ يدي، ففصَلْتُ عنْهُ بكَبِدٍ مرْضوضَةٍ، ودُموعٍ مفْضوضةٍ، فهلْ سمِعْتُمْ يا أولي الألْبابِ، بأعْجَبَ منْ هذا العُجابِ؟ فقُلْنا: لا ومَنْ عندَهُ عِلمُ الكِتابِ، فقال: أثْبِتوها في عَجائِبِ الاتّفاقِ، وخلّدوها بُطونَ الأوْراقِ، فما سُيّرَ مثلُها في الآفاقِ، فأحْضَرْنا الدّواةَ وأساوِدَها، ورَقّشْنا الحِكايَةَ على ما سرَدَها، ثمّ اسْتَبْطنّاهُ عنْ مُرْتآهُ، في استِضْمام فَتاهُ، فقالَ: إذا ثَقُلَ رُدْني، خَفّ عليّ أنْ أكْفُلَ ابْني، فقُلنا: إنْ كان يكْفيكَ نِصابٌ منَ المالِ، ألّفناهُ لكَ في الحالِ، فقالَ: وكيْفَ لا يُقْنِعُني نِصابٌ، وهلْ يحتَقِرُ قدْرَهُ إلا مُصابٌ؟ قالَ الرّاوي: فالتَزَمَ منْهُ كلٌّ منّا قِسطاً، وكتبَ له بِهِ قِطّاً، فشَكرَ عندَ ذلِك الصُنْعَ، واستَنْفَدَ في الثّناء الوُسْعَ، حتى إنّنا اسْتَطلْنا القوْلَ، واستَقلَلْناالطَّوْلَ، ثمّ إنّهُ نشَرَ منْ وشْيِ السّمَرِ، ما أزْرَى بالحِبَرِ، الى أنْ أظَلّ التّنْويرُ، وجَشَرَ الصبْحُ المُنيرُ، فقضَيْناها ليلَةً غابَتْ شوائِبُها، الى أنْ شابَتْ ذَوائِبُها، وكمُلَ سُعودُها، الى أنِ انْفطَرَ عودُها، ولمّا ذَرّ قرْنُ الغَزالَةِ، طمرَ طُمورَ الغَزالَةِ، وقال: انْهَضْ بِنا لنَقبِضَ الصّباتِ، ونستَنِضَّ الإحالاتِ، فقَدِ اسْتَطارَتْ صُدوعُ كَبِدي، منَ الحَنينِ الى ولَدِي، فوَصَلتُ جَناحَهُ، حتى سَنّيتُ نَجاحَهُ، فحينَ أحْرَزَ العَينَ في صرّتِه، فرَقّتْ أساريرُ مسرّتِهِ، وقال لي: جُزيتَ خَيراً عنْ خُطا قدَميكَ، واللهُ خَليفَتي علَيْكَ، فقُلتُ: أُريدُ أن أتّبِعَكَ لأشاهِدَ ولَدَك النّجيبَ، وأُنافِثَهُ لكَيْ يُجيبَ، فنظَرَ إليّ نظْرَةَ الخادِعِ الى المَخْدوعِ، وضحِكَ حتى تغَرْغَرَتْ مُقلَتاهُ بالدّموعِ، وأنشَدَ:

يا مَنْ يظَنّى السّرابَ ماءً ... لمّا روَيْتُ الذي روَيْتُ
ما خِلْتُ أنْ يستَسِرّ مَكري ... وأنْ يُخيلَ الذي عنَيْتُ
واللهِ ما بَرّةٌ بعِرْسي ... ولا ليَ ابنٌ بِهِ اكتَنَيْتُ
وإنّما لي فُنونُ سِحرٍ ... أبدَعْتُ فيها وما اقتَدَيتُ
لمْ يحْكِها الأصمَعيُّ فيما ... حكَى ولا حاكَها الكُمَيتُ
تَخِذْتُها وُصلَةً الى ما ... تَجْنيهِ كَفّي متى اشتَهَيْتُ
ولوْ تَعافَيتُها لحالَتْ ... حالي ولمْ أحْوِ ما حوَيْتُ
فمهّدِ العُذْرَ أو فسامِحْ ... إنْ كُنتُ أجرَمْتُ أو جنَيْتُ

ثمّ إنّه ودّعني ومَضى، وأوْدَعَ قلْبي جمْرَ الغَضا.

٨- المقامة الإسكندريّة التاسعة من مقامات الحريري

قالَ الحارثُ بنُ هَمّامٍ: طَحا بي مَرَحُ الشّبابِ، وهوَى الاكتِسابِ، الى أن جُبْتُ ما بينَ فرْغانَةَ، وغانَةَ، أخوضُ الغِمارَ، لأجْني الثّمارَ، وأقْتَحِمُ الأخْطارَ، لكَيْ أُدرِكَ الأوْطارَ، وكُنتُ لَقِفْتُ منْ أفْواهِ العُلَماء، وثَقِفْتُ منْ وَصايا الحُكَماء، يلْزَمُ الأديبَ الأريبَ، إذا دخَلَ البلَدَ الغريبَ، أنْ يَستَميلَ قاضِيَهُ، ويستَخْلِصَ مَراضِيَهُ، ليشْتَدّ ظهرُهُ عندَ الخصامِ، ويأمَنَ في الغُربَةِ جَوْرَ الحُكّامِ، فاتّخذْتُ هذا الأدَبَ إماماً، وجعلْتُهُ لمَصالحي زِماماً، فما دخلْتُ مَدينةً، ولا ولَجْتُ عَرينَةً، إلا وامتزجْتُ بحاكِمِها امتِزاجَ الماءِ بالرّاحِ، وتقوّيْتُ بعِنايَتِهِ تقَوّي الأجْسادِ بالأرْواحِ، فبَينَما أنا عِندَ حاكِمِ الإسكنْدَريّةِ، في عشيّةٍ عرِيّةٍ، وقد أحضَرَ مالَ الصّدَقاتِ، ليَفُضّهُ على ذوي الفاقاتِ، إذْ دخَل شيخٌ عِفْرِيَةٌ، تعْتُلُهُ امرأةٌ مُصْبِيَةٌ، فقالت: أيّدَ اللهُ القاضيَ، وأدامَ بهِ التّراضي، إني امرأةٌ من أكرَمِ جُرثومَةٍ، وأطْهَرِ أرومةٍ، وأشرَفِ خُؤولَةٍ وعُمومَةٍ، مِيسَمي الصَّونُ، وشيمَتي الهَوْنُ، وخُلُقي نِعْمَ العَوْنُ، وبيْني وبينَ جاراتي بوْنٌ، وكان أبي إذا خطَبَني بُناةُ المجْدِ، وأرْبابُ الجَدّ، سكّتَهُم وبكّتَهُم، وعافَ وُصلَتَهُمْ وصِلَتَهمْ، واحتجّ بأنّهُ عاهَدَ اللهَ تَعالى بحَلْفَةٍ، أن لا يُصاهِرَ غيرَ ذي حِرفَةٍ، فقيّضَ القدَرُ لنَصَبي، ووَصَبي، أنْ حضَرَ هذا الخُدَعَةُ ناديَ أبي، فأقسَمَ بينَ رهْطِهِ، أنّهُ وَفْقُ شرْطِهِ، وادّعى أنهُ طالَما نظَمَ دُرّةً الى دُرّةٍ، فباعَهُما ببَدْرَةٍ، فاغْتَرّ أبي بزَخرَفَةِ مُحالِهِ، وزوّجَنيهِ قبْلَ اختِبارِ حالِه، فلمّا استَخْرَجَني منْ كِناسي، ورحّلَني عنْ أُناسي، ونقَلَني الى كسْرِهِ، وحصّلَني تحْتَ أسرِهِ، وجدْتُهُ قُعَدَةً جُثَمَةً، وألفَيْتُهُ ضُجَعَةً نُوَمَةً، وكنتُ صحبْتُهُ برِياشٍ وزِيٍّ، وأثاثٍ ورِيٍّ، فما برِحَ يَبيعُهُ في سوقِ الهضْمِ، ويُتْلِفُ ثمَنَهُ في الخَضْمِ، والقَضْمِ، الى أنْ مزّقَ ما لي بأسْرِهِ، وأنْفَقَ مالي في عُسْرِهِ، فلمّا أنْساني طعْمَ الرّاحةِ، وغادرَ بيْتي أنْقَى منَ الرّاحةِ، قلتُ له: يا هَذا إنّهُ لا مخْبأ بعْدَ بوسٍ، ولا عِطْرَ بعْدَ عَروسٍ، فانهَضْ للاكتِسابِ بصِناعَتِكَ، واجْنِني ثمَرَةَ براعتِكَ، فزعَمَ أن صِناعَتَهُ قد رُمِيتْ بالكَسادِ، لِما ظهرَ في الأرضِ من الفَسادِ، ولي منْهُ سُلالةٌ، كأنّهُ خِلالَةٌ، وكِلانا ما يَنالُ معَهُ شُبْعَةً، ولا تَرْقأُ لهُ منَ الطّوى دمعَةٌ، وقد قُدتُهُ إليْكَ، وأحضَرْتُهُ لديْكَ، لتَعْجُمَ عودَ دعْواهُ، وتحْكُمَ بيْنَنا بِما أراكَ اللهُ، فأقْبَلَ القاضي عليْهِ وقال لهُ: قد وعَيْتُ قَصَصَ عِرْسِكَ، فبرْهِنِ الآنَ عن نفسِكَ، وإلا كشَفْتُ عن لَبْسِكَ، وأمرْتُ بحبْسِكَ، فأطْرَقَ إطْراقَ الأُفعُوانِ، ثمّ شمّرَ للحرْبِ العَوانِ، وقال:

اسْمَعْ حَديثي فإنّهُ عجَبُ ... يُضحَكُ من شرحِهِ ويُنتحَبُ

أنا امرؤٌ ليسَ في خَصائِصِهِ ... عيْبٌ ولا في فَخارِهِ رِيَبُ

سَروجُ داري التي ولِدْتُ بها ... والأصلُ غسّانُ حينَ أنتسِبُ

وشُغلِيَ الدّرسُ والتبحُّرُ في الـ ـعِلمِ طِلابي وحبّذا الطّلَبُ
ورأسُ مالي سِحْرُ الكَلامِ الذي منهُ يُصاغُ القَريضُ والخُطَبُ
أغوصُ في لُجّةِ البَيان فأخـ ـتارُ اللآلي منْها وأنْتَخِبُ
وأجْتَني اليانِعَ الجَنِيَّ منَ الـ ـقوْلِ وغيري للعودِ يحْتَطِبُ
وآخُذُ اللفْظَ فِضّةً فإذا ما صُغْتُهُ قيلَ إنّهُ ذهبُ
وكُنتُ منْ قبلُ أمْتَري نشَباً بالأدَبِ المُقْتَنى وأحتَلِبُ
ويمْتَطي أخْمَصي لُرْمَتِهِ مَراتِباً ليسَ فوقَها رُتَبُ
وطالَما زُفّتِ الصِّلاتُ الى ربْعي فلمْ أرْض كلَّ منْ يهَبُ
فاليوْمَ مَنْ يعْلَقُ الرّجاءُ بهِ أكسَدُ شيءٍ في سوقِه الأدَبُ
لا عِرْضُ أبْنائِهِ يُصانُ ولا يُرْقَبُ فيهِمْ إلٌّ ولا نسَبُ
كأنّهُمْ في عِراصِهِمْ جِيَفٌ يُبْعَدُ منْ نتْنِها ويُجْتَنَبُ
فحارَ لُبّي لِما مُنيتُ بهِ منَ اللّيالي وصرْفُها عجَبُ
وضاقَ ذرْعي لضيقِ ذاتِ يَدي وساوَرَتْني الهُمومُ والكُرَبُ
وقادَني دهْري المُليمُ الى سُلوكِ ما يستَشينُهُ الحسَبُ
فبِعْتُ حتى لم يبْقَ لي سبَدٌ ولا بَتاتٌ إليْهِ أنْقَلِبُ
وادّنْتُ حتى أثقَلتُ سالِفَتي بحَملِ دَينٍ من دونِه العطَبُ
ثمّ طوَيتُ الحَشا على سغَبٍ خمْساً فلما أمَضّني السّغَبُ
لمْ أرَ إلا جِهازَها عرَضاً أجولُ في بيعِه وأضْطَرِبُ
فجُلتُ فيهِ والنّفْسُ كارِهَةٌ والعينُ عَبرَى والقلبُ مُكتَئِبُ
وما تجاوزْتُ إذ عبثْتُ بهِ حَدَّ التّراضي فيحدُثَ الغضَبُ
فإنْ يكُنْ غاظَها توهُّمُها أنّ بَناني بالنّظْمِ تكتسِبُ
أو أنّني إذ عزَمتُ خِطبَتَها زخْرَفتُ قوْلي لينجَحَ الأرَبُ
فوالّذي سارَتِ الرّفاقُ الى كعْبَتِهِ تستَحثُّها النُّجُبُ
ما المكْرُ بالمُحصَناتِ من خُلُقي ولا شِعاري التّمويهُ والكذِبُ
ولا يَدي مُذْ نشأتُ نيطَ بها إلا مَواضي اليَراعِ والكُتُبِ

بل فِكْرَتي تنظِمُ القَلائِدَ لا كفْـ ـفي وشعري المنظوم لا السُّخُبُ

فهَذِهِ الحِرفَةُ المُشارُ الى ما كُنتُ أحوي بها وأجتَلِبُ

فأذَنْ لشَرْحي كما أذِنتَ لها ولا تُراقِبْ واحكُمْ بما يجِبُ

قال: فلمّا أحكَم ما شادَهُ، وأكملَ إنشادَهُ، عطَفَ القاضي الى الفَتاةِ، بعْدَ أن شُعِفَ بالأبياتِ، وقال: أمَا إنّهُ قدْ ثبَتَ عندَ جميع الحُكّامِ، ووُلاةِ الأحْكامِ، انقِراضُ جيلِ الكِرامِ، وميْلُ الأيامِ الى اللّئامِ، وإني لإخالُ بعْلَكِ صَدوقاً في الكلامِ، بريّاً من المَلامِ، وها هو قدِ اعتَرَفَ لكِ بالقَرْضِ، وصرّحَ عنِ المَحْضِ، وبيّنَ مِصْداقَ النّظْمِ، وتبيّنَ أنّه مَعروقُ العظْمِ، وإعْناتُ المُعْذِرِ مَلأمَةٌ، وحبْسُ المُعسِرِ مألَمةٌ، وكِتْمانُ الفَقْرِ زَهادَةٌ، وانتِظارُ الفَرَجِ بالصّبرِ عِبادَةٌ، فارْجِعي الى خِدرِك، واعذُري أبا عُذْرِكِ، ونَهْنِهي عن غَرْبِكِ، وسلّمي لقَضاءِ ربّكِ، ثمّ إنّهُ فرضَ لهُما في الصّدقاتِ حِصّةً، وناوَلَهُما منْ دَراهِمِهما قَبصَةً، وقال لهُما: تعلّلا بهذه العُلالَةِ، وتندّيا بهذِهِ البُلالَةِ، واصْبِرا على كيْدِ الزّمانِ وكدّهِ، فعَسى اللهُ أنْ يأتيَ بالفَتْحِ أو أمْرٍ من عِندِه، فنَهَضا وللشّيخِ فرْحَةُ المُطْلَقِ من الإسارِ، وهِزّةُ الموسِرِ بعْدَ الإعْسارِ، قال الرّاوي: وكنتُ عرفْتُ أنهُ أبو زيدٍ ساعةَ بزغَتْ شمسُهُ، ونزغَتْ عِرسُهُ، وكدْتُ أُفصِحُ عن افتِنانِه، وأثْمارِ أفْنانِهِ، ثمّ أشفَقْتُ من عُثورِ القاضي على بُهتانِه، وتزْويقِ لِسانِه، فلا يرَى عندَ عِرْفانِه، أن يُرشِّحَهُ لإحسانِه، فأحْجَمْتُ عنِ القوْلِ إحْجامَ المرْتابِ، وطوَيتُ ذكْرَهُ كطَيّ السّجِلّ للكِتابِ، إلا أني قُلتُ بعدَما فصَلَ، ووصلَ الى ما وصَلَ: لوْ أنّ لَنا مَنْ ينطَلِقُ في أثَرِه، لأتانا بفَصّ خبَرِهِ، وبِما يُنْشَرُ من حِبَرِهِ، فأتبَعَه القاضي أحدَ أُمنائِهِ، وأمرَهُ بالتّجسّسِ عنْ أنبائِهِ، فما لبِثَ أنْ رجَعَ مُتَدَهْدِهاً، وقهْقَرَ مُقهْقِهاً، فقال له القاضي: مَهْيَمْ، يا أبا مرْيَمَ؟ فقال: لقدْ عايَنْتُ عجَباً، وسمعْتُ ما أنْشأ لي طرَباً، فقال لهُ: ماذا رأيتَ، وما الذي وعَيْتَ؟ قال: لمْ يزَلِ الشيخُ مذْ خرَجَ يُصفّقُ بيَدَيْهِ، ويخالِفُ بينَ رِجلَيْهِ، ويغرّدُ بمِلء شِدْقَيْهِ، ويقول:

كِدْتُ أصْلَى ببَلِيّهْ منْ وَقاحٍ شَمّرِيّهْ

وأزورُ السّجْنَ لوْلا حاكِمُ الإسكندريّهْ

فضحِكَ القاضي حتى هوَتْ دنّيّتُهُ، وذوَتْ سكينَتُهُ، فلمّا فاء الى الوَقارِ، وعقّبَ الاستِغْراب بالاستِغْفارِ، قال: اللهُمّ بحُرمَةِ عِبادِكَ المقرّبينَ، حرّمْ حبْسي على المتأدّبينَ، ثمّ قال لذلِكَ الأمين: عليّ بهِ، فانطلقَ مُجِدّاً بطلَبِه، ثمّ عادَ بعدَ لأيِهِ، مخبّراً بنأيِهِ، فقال لهُ القاضي: أمَا إنّهُ لوْ حضَرَ، لكُفيَ الحذرَ، ثمّ لأوْلَيْتُهُ ما هو به أوْلى، ولأرَيتُهُ أنّ الآخِرَةَ خيرٌ لهُ من الأولى، قال الحارثُ بنُ همّام: فلمّا رأيتُ صَغْوَ القاضي إليهِ، وفَوْتَ ثمرَةِ التّنبيهِ علَيْهِ، غَشِيَتني نَدامَةُ الفرَزْدَقِ حينَ أبانَ النّوارَ، والكُسَعيّ لمّا استَبانَ النّهارَ.